خلف المرايا

* الكتاب: خلف المرايا(مجموعة قصصية)

* الكاتبة: إيناس سيد جعيتم

* تصميم الغلاف: صابرين عبدالهادي

* إخراج داخلي: سليل الفراعنة

* رقم الإيداع: 29494/ 2021

* الترقيم الدولي: 978-977-94-0588-9

المدير العام: عزيز عثمان

لمراسلة الدار: daralmuntadaa@gmail.com

واتس آب: 01005186476

صفحة الدار على موقع فيسبوك: دار المنتدى للنشر والتوزيع









مجموعة قصصية

خلف المرايا

إيناس سيد جعيتم



إهداء

إليه...

إلىٰ ذلك الحرف المراوغ المختبئ بين أوردتي...

إلىٰ ذلك الذي إذا غاب غابت عني ابتسامتي...

إلىٰ من أصبح علتي ودوائي...

إليك أكتب... عل جراحنا تندمل.



والتقطتُّ أنفاسي

ما أروعك!

نظرتُ إليه بإعجاب يشوبه شيء من التوقير، كان فريدا حقا، من سواد براق أكاد أرى ملامحي الغرقى فيه لأحمر ناري يكاد يلفحني بباطنه، وكعب رفيع طويل للغاية. بالرغم من طول قامتي الملحوظ لكنني أحببت نفسي وقدماي غارقتان بحممه.

كان آخر ما ارتديت لأنهي إطلالتي التي تشي عن عمد بما لا أحاول إخفاءه، أناقة جريئة غير مبتذلة، رفعت حرف ثوبي وتأملته، ناجيته:

«عجبا لتاج يهجر الرأس ويسكن القدم»

لم يخب ظني؛ استحوذ على كلمات الاطراء فانزوى القرط الماسي تعيسا بأذني.

استأذنت وتباهيت كثيرا وأنا أبتعد عن الجمع والتجئ إلى مكانٍ بعيدٍ عن الأعين بحديقة منزل المضيف، تلفتُّ حولي وتأكدتُ من أنني في مأمنٍ بعيدٍ عن العيون، ألقيتُ بجسدي على المقعد وخلعته، تنفستُ الصعداء وأصابعي تتحرر من سجن جوفِه المخملي، الألمُ يعتصرُ قدميَّ، ابتسمتُ وأنا أحرك أصابعي والدماءُ تتدفقُ فيها من جديد، زممتُ شفتيَّ وأنا أنظرُ إليه معاتبة، نظرتُ حولي مرةً أخرى، الكلُ لاهٍ في شأنِه، قررتُ أن أحرك رجليَّ قليلا قبل أن أعودُ لارتداء

حذائي القيم، نهضتُ وخطوتُ خطوتين وصلت فيهما للعُشب، هالني ذلك الإحساس المذهل!

داعب العُشب باطن قدميَّ فشعرتُ بدغدغةٍ خفيفةٍ لذيذة، كمشّتُ العشب بأصابعي وأغمضتُ عيني وقد تحفزت خلايا الإحساس بجلدي الملامس للتربة الرطبة والحشائش اللينة، كمن يتعلم المشي لأول مرة خطوت بروية، لا... ليس خوفا؛ إنما هي متعة بسيطة جدا مشبعة حد الإذهال، أريد المزيد. تركت ثوبي الذي كان ارتفاع كعب الحذاء يقيه أن يمس الأرض فخر مُقبّلا العشب، لانت ابتسامتي وانخفض حاجبي الذي كاد يتيبس في موضعه المرتفع. سألتُ نفسي:

«ما هذه المتعة!»

إحساسٌ بالحرية يتسلل عبر مسامي ليصعد غازيًا إلىٰ سائر جسدي، تفجر كألعاب نارية بجمجمتي فانتفضت خلايا مخي كمن ضربته صاعقة، خلعتُ وقاري وتحفظي ورحتُ أجري كطفلةٍ صغيرةٍ أُطلقت بحديقةٍ غناء بعد حبس في حجرةٍ ضيقةٍ دام دهرا، جننتُ بالتأكيد؛ خيل إليَّ أنني أكاد أطفو والنسمات تحملني، غافلتني ضحكة مجلجلة وخرجت دون رقيب، في غُمرة نشوتي بحريتي التي غابت عني لفترة أجهل طولها؛ غفلت عنه، فلم انتبه لفردتيه التي نامت إحداهما علىٰ جنبها، بينما قُلبت الأخرىٰ ليرتفع كعبها المدبب لأعلىٰ.



موت آخر

لم يدر أيهما أعلىٰ صوتا؛ أنفاسه المتلاحقة أم نبضاته المتسارعة!

تسارعت خطواته وظلام ثقيل يكسو الطريق حوله في ليلة هجرها القمر وعافتها النجوم، صرخت حدقتاه اللتان اتسعتا رغما عنه ألما وهي تتحسس انحناءات الطريق، هاجمه إحساس بغيض بالوحدة واخزا عموده الفقري فارتعدت فرائسه، خطا خطوة ضائعة ممددا ذراعيه محركا أنامله علّه يجد ما يطمئنه، تنبهت أذنه لصوت لم يعرف أيأتيه من خلفه أم من تحت قدميه!

لهاث وزمجرة دسا الرعب في قلبه الذي اعتصره الألم وهو يدفع الدماء في عروقه بسرعة ورائحة الخوف تنضح منه، تعثرت خطاه وهو يحاول الفرار من ذلك المجهول المزمجر بغضب حوله، مست أصابعه جدارا باردا فألجأ ظهره إليه فزعا والصوت يقترب، تمدد الجدار واحتواه لينهش جسده بأنياب وأظافر لم تدع خلية من جسده إلا وأذاقتها الألم.

استفاق علىٰ صوت نبضاته التي تقرع صدره بعنف، مرت ثوان حتىٰ أيقن أنه كابوس بغيض وانتهىٰ، حاول فتح عينيه فعانداه جفناه، ولم تقو ذراعاه علىٰ الحركة، أراد الصراخ «أن انجدوني» لكن شفتيه اللتين تحتضنان إنبوبا لم تتحركا، تحول خوفه لغضب وهو يدفع جسده شبه الميت للحركة دون جدوىٰ، عادت الأمواج المنكسرة



تتلاحق في سرعة شديدة على الشاشة الصغيرة، سمع الباب يفتح وخطوات مضطربة تنتشر بالحجرة.

- احقنيه بالمهدئ بسرعة قبل أن يصاب قلبه بأذى.

سرى المهدئ مع ما يدخل جسده من محاليل، أُجبر القلب على الراحة، وحام ضباب حول عقله، «أهو موت جديد يلبسني!؟»

قبل أن تسدل أخر ستائر العدم بينه وبين الحياة، تاق لضمة ذاك الجدار مرة أخرى.

• • ✿ • •



قبسٌ من يقين

- لا أعرفُ كيف تصدقينه!

فاجأها بالسؤال لكنها لم تتردد في الإجابة:

- لم نعهده كاذبًا أبدا.

سأل مشككا:

- ما عهدناه ولكنه بشر، أليس من المحتملِ أن يخطئَ أو يكذب؟

أطرقت برأسها:

- بلىٰ.

لفّتْ صغيرَها في دثارٍ صوفي وضمته لصدرِها، بعد وفاةِ زوجِها لم يعد يشغلُها غيره، تشردُ مع رمالِ الصحراءِ الممتدةِ بلا نهايةٍ أمامها، تتساءلُ عما أصابَ البشر؛ لماذا فقدوا إنسانيتَهم وعاثوا في الأرضِ فسادا؟

تأتيها أصواتٌ مختلطةٌ من خلفِها، تميز منها ما تعرف وتتساءلُ عن أصحابِ الأصواتِ الأخرىٰ.

قالتها بثقة:

- بالتأكيد هو صادق، وإلا كيف لأجناسٍ شتىٰ من المخلوقاتِ أن تأتيه بمحض إرادتها؟

بكلماتٍ مراوغةٍ رد:

- لكن من أين سيأتي الماءُ؟ ألا ترين الرمالَ الجافةَ المترامية حولك؟!

تتلفت حولها، ما من بحرٍ سوىٰ بحرِ الرمالِ اللا متناهي، تنفضُ الشكَ وتعاودُ ضم صغيرِها..

يعاودُ حديثَه غير آبه بما تفكر:

- انظري للسماء! ما من سحابٍ فيها.

أضاف بنبرة تعمد أن يشبعَها بالشك:

- لكنني أصدق.

صوتُ زئيرٍ مهيبٍ يقطعُ صفيرَ الريحِ فتلتفتُ نحو البناءِ الخشبي الهائل، يقف شامخًا وسط الصحراء، عامرًا بالحركةِ حاويًا جميعَ أشكالِ الحياة، ظلُّه الممتدُ يزيده رهبة، رأىٰ الإعجابَ الساكن عينيها فهمس:

- أتأمنين علىٰ صغيرِك بينهم؟

احتضنته بقوةٍ وقد زاغ بصرُها، فلم يتمهلْ وأكمل:

- وإن حدث ما يدعي وطال الزمنُ بالفلكِ الحائرةِ بمن تحمل؟ ألن ينفدَ الطعام؟ وإن حدث.. ألن تهاجمَنا تلك الوحوشُ الضارية؟

بدت الحيرةُ في عينيها، وخوفُها علىٰ صغيرِها يشلُ تفكيرَها، لم يمهلها وقتًا للتفكير:

- عودي معي، من أين سيأتي الطوفان؟ وإن أتىٰ! متىٰ ينتهي؟ وماذا سيحدث حتىٰ ذاك الحين؟

عودي معي، سيسامحونَك ويتقبلونَك من جديد، فقدتِ رجلًا، ويتمناكِ العشرات، أنتِ صغيرةٌ وجميلة، وصغيرُك سيجد بدلًا من الأبِ آباء، امرأةٌ بجمالك لو أرادت لصارت ملكةً يأتمر الرجالُ بنظرةٍ منها، أتبيعين الحياةَ ومتعَها من أجلِ طوفانٍ لا تعرفين أسيأتي أم لا؟ عودي معي.

هبت واقفةً وقد أدارت كلماته رأسَها، ألقت نظرةً أخيرةً علىٰ الفلك، رأته هناك يأخذ بأيدي الناس، يقينُه وصبرُه حيرها، قلبها يحدثها بأنه صادق، تصارعت الأفكار برأسها، ما بين الحياةِ وسط وحوشٍ تمشي علىٰ قدمين لن تتوانىٰ عن نهشِ جسدها بلا رحمة، وهلاكٍ قد يأتيها وصغيرِها مع من اختاروا الملاذَ في ركابه.

تحركت قدماها، دارت حوله وهو يحثها:

- عودي... عودي...

تجاوزته وأكملت الخطىٰ وقد فاض قلبُها يقينًا، خفت صوته وتلاشىٰ وهي تصعد درجاتِ السلم الخشبي.



هذيان

لم تذق عيناها النوم للحظة، لم تشعر بالتعب قط.

ساعات وهي تحاول إخماد نار الحمىٰ التي تنهش جسده المسجي علىٰ السرير في وهن، كلما أنَّ أو تأوه بادرته بكلماتها المطمئنة والدعاء له، يطلب المزيد من الأغطية فتجاوبه بأن هذا أمر الطبيب.

بكته وهي تشعر بالعجز عن مداواته، حرارته تأبىٰ الانخفاض، لم تتهاون وهي تبدل المناشف المبللة بالماء البارد وتوزعها علىٰ سائر جسده، كلما اشتدت الحمىٰ اشتد هذيانه، لم تميز ما يقول، ظنّته ينادي باسمها فجاوبته بصوت أقرب للنحيب، أعاد النداء فصعقتها حروفه الزائغة، كذبت نفسها في البداية ولكنه أصر علىٰ أن يكرر الاسم؛ كان يهذي باسم امرأة أخرىٰ، يناجيها بكلمات مرتعشة، تجمدت يدها الممسكة بالمنشفة المبللة، لم تقو علىٰ فعل شيء غير النظر له والحمىٰ تطهو جسده، والاستماع له ذاهلة وهو يتمتم عن الأخرىٰ.

انتقلت الحمىٰ لرأسها واشتعل سائر جسدها حتىٰ تبخرت الدموع عن وجنتيها، رفعت عينيها للمرآة تنظر لنفسها، خيل إليها أنها تراها بوضوح؛ كلمتان كتبتا فوق جبينها (المخدوعة الساذجة)

أفاقها صوته المتألم الصارخ بذلك الاسم الذي زلزل استقرارها، أمسكت الطبق الذي طفت قطع الثلج فوق مائه ورفعته عاليا، سكبته دفعة واحدة فوق رأسها فشهقت مستفيقة من وهم عاشته لسنوات،



مسحت رأسها ووجهها، لملمت المناشف المبللة التي غطت بها جسده، غطته بكل ما وقعت عليه عيناها من أغطية ثقيلة، أغلقت النوافذ.. وخرجت من الغرفة.





ثمرة وحيدة

«ألا لعنة الله عليكم جميعا، يا من جعلتموني بقرار أخذتموه وأنتم واثقون؛ أسيرها، الوحيد في دائرة اهتمامها، معشوقها الذي صفدته بأغلال الحب»

كلماتٌ طافت بعقلِه حتىٰ قاطعه صوتها:

- فريد...

أتاه الصوت حاملا تلك النبرة القلقة التي ألِفها منذ استيقظت حاسة السمع بأذنيه، حك لحيته التي تسللت لها شعيرات بيضاء علىٰ استحياء، اعتدل في جلسته وإجابها:

- أنا هنا يا أمي.

لم تطلب شيئا... عادت لتكمل ما بدأت بعد أن اطمأنت لوجوده، لم يبدُ منزعجا، فهو واحد من ملايينٍ حُكِمَ عليهم قبل ولادتهم أن يكونوا ثمرة واحدة علىٰ غصن الأسرة.

سنوات والحناجر تصرخ بأن القنبلة علىٰ وشك الانفجار، تدافعت الأرقام متتالية في المعداد حتىٰ توقف يوما معلنا عدم قدرته علىٰ ملاحقة سرعة تدفق المواليد، علىٰ منضدة دائرية اتخذ القرار، وبعد سبعة وتسعين عاما جلس هو وملايين من أمثاله بين جدران بيوت آبائهم محاطين باهتمام مفرط، رن هاتفه فابتسم وهو يرىٰ صورتها علىٰ شاشته، التقطهُ وابتسامة واسعة تعلو شفتيه:

- حبيبتي.



- كيف حالك حبيبي؟
- أشتاقكِ، ماذا قالت طبيبة النساء؟
- لا تقلق حبيبي، لا زال أمامي ثلاث سنوات تقريبا، هذا إذا ما تركتني أمي ابتعد عن حضنها وأتزوجك.

أغلقا الهاتف بينما ينتظر المعداد بلهفة تحرك الرقم بخانة الآحاد.





زليخة

«زليخة... زليخة»

كادت نيرانُ أنفاسِها وهي ترددُ هذا الاسمَ دون أن تحركَ شفتيها تذيبُ مخَها، اهتزت المكحلةُ في يمناها ليتعرج الخطُ الذي ترسمه حول عينيها فتبدو كعين وحش، ألقت المكحلةَ في حنقٍ وهي تنظرُ لوجهِها الذي شوهته بنفسها.

«تبا لكِ يا امرأة؛ مجردُ التفكيرِ باسمك دون لفظِه قادر علىٰ تشويهِ ما يخشىٰ القبحُ من المرورِ أمامه»

تناولت قطعةَ قماشٍ وغمستها بالماء، شرعت في تنظيفِ وجهها بعناية، اليومُ يومٌ مشهود، ولن تظهرَ بينهن أمامها إلا في كاملِ زينتها، اعادت رسمَ عينيها بخطٍ رفيعٍ طويلٍ أبرز جمالَها وفتنتها، لم تدع من مساحيقِ التجميلِ شيئًا إلا واستخدمته «أين أنتِ من جمالي يا زليخة.. أيتها السارقة، لا بل أيتها الساحرة.. راعيل الساحرة، ما كان لبوتيفار أن يتزوجَك إلا بالسحر، تبًا للكهنةِ الذين ساعدوك»

فتحت صندوقَ جواهرِها وانتقت أغلاها وأجملَها، كلهن سيفعلن ذلك، منذ اجتمعن في حمامِ النساء بين رذاذِ الماءِ الساخنِ ورائحةِ البخور، ليتناولوا سيرتَها كالمقبلاتِ الشهيةِ مع أقداحِ الشرابِ وهن يعرفن، تبادلن نهشَها وتفنن في قذفِها.. أي جمالٍ فيها يخلب الألباب! نحن أجمل.

لم تكتف بالمال والسلطة؛ سحرت العزيزَ فأصبحت امرأتُه التي يأتمر الناسُ بأمرها، أغرقها بالهدايا والحلي المصنع لها خصيصا، ولم تشبع، خائنة، شرهة، لم تكتفِ برجلِها الذي لا تستحق أن تعتلي العرشَ بجواره، واشتهت خادمَها، أي جشعٍ هذا الذي لا يهدأ؟! ألا تكتفي يا امرأة؟!

كيف تهيمين بمن ربيت بين يديكِ؟!

قالت إحداهن:

- سمعت أنه بارعَ الجمال، حتىٰ أنه أجمل منها.

تعالت الضحكاتُ ونيرانُ الغيرةِ تأكل قلوبَهن خلفها، لم يبخلن عليها في اللعناتِ، تلك التي حظيت وحدها بالجمالِ والمالِ والسلطةِ... والحب.

نظرت لنفسها لآخر مرة في المرآة، لا ينقصها شيء، تناولت الأساورَ وارتدتها الواحدةَ تلو الأخرىٰ، نظرت ليدِها، أدارت الفكرةُ رأسَها فارتعدت أوصالُها وارتعشت يداها فسقطت الأساورُ منها... «لا لن يحدث، لن تصل لمبتغاها»

وصلت لبيتِ العزيز، يكاد البذخُ الذي ينضح من كل ركنٍ يحتقرها ويزدري ما ارتدته من زينة، أقبلت علىٰ النسوةِ اللاتي افترشن الوسائدَ الحريرة، جلست بينهن، ما بين غمزٍ ولمزٍ وضحكاتٍ مصطنعة، كانت القلوب الحاقدة ترتجف رهبة، دارت عليهن الخادماتُ تقدمن لهن السكاكينَ علىٰ أطباقٍ ذهبية، تملكهن الخوفُ



مما اتفقن مع زليخةَ عليه والتي خرجت عليهن في كامل زينتها وبهائها...

«تبا لك وألف يا سارقة يا خائنة يا...»

لم يستطع لسانُها نطقَها هي حقا خارقة الحسن، ألهبت نظراتُها المتحديةُ لهن القلوبَ فازددن حقدا، ابتسمت وهي تدعوه للدخول، سلب جمالُه ونورُ وجهِه عقولَهن وقلوبهن.

أمسكت سكينتها منفذة ما عليها من الاتفاق.

قَطَّعتْ يدها ونارُ الغيرةِ تنهش سائر جسدِها، ولسانها لا ينطق سوىٰ بلعنها...

«زليخة. زليخة»





خيبة أمل

هبطت الطائرة.. حمل حقيبته الوحيدة وسار متثاقلا مقتلعا ساقيه بصعوبة من إسفلت المطار، خرج متجها لمنزله متمنيا ألا ينتهي الطريق أبدًا، كان أسوأ كوابيسه هو لحظة لقائها وقد علت وجهها نظرة خيبة الأمل، لم يجرؤ علىٰ إخبار أحد بعودته، وها هو عائدٌ بعد شهور، وقد امتلأت حقيبته بخيبة الأمل.

وصل البيت، ووضع قدمه علىٰ أول درجات السلم غارقًا في همه، تجمدت قدمه قبل أن تطأ الدرجة التالية وهو يسمع صوتها الحاني يستجديه:

- خليك جنبي يا حبيبي رزق ربنا موجود في كل مكان.

أجابها في عناد:

- ياما هضيَّع عمري وأنا مستني، وإن اشتغلت هاخد إيه؟ أنتي مش عايزة تفرحي بيا وتشـ...

قاطعته باكية:

- افرح بيك وانت قصاد عيني.

أجابها بهدوء:

- تفرحي بيا لما ارجعلك بالخير، ارميه في حجرك، وانتي واخواتي تتمتعوا بيه، وأنا... اتجوز وافرحك بخلفتي، أعز الولد ياما..



ما نسىٰ لحظة دمعتها وهي تناوله مصوغاتها التي تركتها لتأمن غدر الزمن، ودعائها له بسعة الرزق، طفرت دموعه ولم يغالبها، تختنق روحه مع صعوده درجات السلم.

طرق الباب بقبضة مرتخية، فتحت أخته الباب هاتفة باسمه في دهشة، تسارعت نبضات قلب والدته عند سماعها اسمه، تركت الصنبور مفتوحا وخرجت من المطبخ بخطوات متعثرة، لم تنتظر النبضة التالية قبل أن ترىٰ انكسار عينيه وهو يقف عند الباب ممسكا بذات الحقيبة التي سافر بها، فتحت له ذراعيها، ألقىٰ نفسه بين أحضانها وأجهش بالبكاء، ضمته بقوة حتىٰ أسكنته رحمها من جديد، هدأ واستكان، أمسكت رأسه بكفيها ونظرت مباشرة في عينيه بنظرة واثقة قائلة: - (حمد الله علىٰ السلامة يا ابن قلبي).



عودة

- لن يهونَ الأمرُ يا صديقي، صدقني، سيقولون لك كلمات خادعةً ليخففوا عنك، ستنسىٰ، ستتخطىٰ، ستستيقظُ يوما لتجدَ العالمَ أفضل، هم يكذبون، أما أنا؛ فهل كذبتُ عليك يوما؟!

احتضن ركبتيه ودفن رأسَه بين ذراعيه والكلماتُ تترددُ بعقله، أراد أن يكذبَه لكنه لم يستطع، فاسترسل الحزنُ وقد راقه استسلامَه:

- اترك لي نفسك، دعني أطهرك، سألتهم قطعةً صغيرة، فقط صغيرةً جدا من روحك، لكنها كافية لتنجي ما تبقىٰ، أنا لست وحشا يا صديقي، لا تخشني، لا تصدق ما يصمونني به، أنا لست السكينَ الذي سيمزقك، بل أنا من سيقتطع القطعةَ العفنةَ من تفاحتك حتىٰ تحمي بقيتها من توغل العفن.

رفع رأسه بصعوبةٍ وأمسك موضعَ قلبِه بقبضتِه واحكمها عليه، كأنما يحاول حمايته، رفع عينيه لصورتها المعلقةِ أمامه علىٰ الجدار، عيناها اللتان تشعان فرحًا وحبا، ذراعاها الملتفتانِ حول رقبتِه تحميه من الخوف ومن ذلك الحزنِ المتربصِ به... وابتسامتها التي أحيت قلبه يوما، قلبه الذي بدأ التيبس منذ توقف قلبُها عن النبض. سنوات وهو يستقوي ليساندَها والمرض ينهشها، تعلم كيف يقف صلبًا خلفها

ليستقيمَ ظهرها، آلامها أحرقت قلبه حتىٰ كاد أن يتحجر، مذ فقدها وهو يرجو دمعة واحدة، لكن الدموع تعانده، تلك التي احتجزها لثلاثِ سنواتٍ ترفض التحرر بعد أن كسر قيدَها بنفسه!

الحياة تغادره رويدا رويدا... كيف يكون سبيلُه لاستبقاءِ ما حاول قتله سابقا!

نظرةٌ أخيرةٌ لشفتيها المبتسمة، تخلت عن ابتسامتها وهمست له:

- استسلم له حبيبي...

استلقىٰ علىٰ ظهره مستقبلا ذلك الرابض علىٰ جلده، زفر زفرة حارة، وتركه يتسلل من مساماته حاملا الحياة مرة أخرىٰ لجسده، اعتصره علىٰ مهل وهو يسري بأوردته مستهدفا قلبه، ارتعدت أوصالُه وسرت الرجفة بخلاياه وهو يقتحم صدره بعنف، مزق النياط وأحكم حصار القلب، اعتصر واعتصر محطمًا طبقاتٍ حجريةٍ كسته، تلاحقت الأنفاسُ لاهثةً حتىٰ كاد صدرُه ينفجر، تفتتت طبقاتٌ ماتت عن عمدٍ والقلب ينازع الألم، تحررت مضغةٌ باقيةٌ لا زالت تنبض، وتحررت معها دمعة سقطت صارخة:

- لقد عدت حيا.



مصيدة

لم أستغرب أن يكون هذا المكان اختياره لأول ميعاد بيننا، هو يعرف جيدا أني لست كباقي الفتيات اللاتي يتهافتن عليه، ولما لا! فوقفته الواثقة بالمعطف الأبيض علىٰ رأس المنضدة تخلب الألباب، وسامته تباري جمال الورود التي تملأ المعمل من حولنا، وعطره النفاذ يتسلل كخمر معتق يتلاعب بخلايا أدمغتنا ومنحيا عطور الزهور جانبا بقسوة. لم يكن خفيا سبب ميل الفتيات لدخول هذا القسم؛ نعم أعترف أن لسحر رئيس القسم أثره في اختيارنا جميعا له، منذ أول لقاء جمعه بنا، أول لقاء للأعين بيننا أيقنت أني أثرت فيه ما أثاره فيّ، لم يكن من الصعب عليه أن يعرف المدخل المناسب لامرأة ذكية معتدة بنفسها، خدعني بعرضه لرؤية مجموعته المميزة، وانخدعت له بشغفي العلمي.

يعجبني كثيرا تجاهله لي وهو يسبقني بخطوة ويعرض عليَّ نباتاتِه التي جمعها من أماكن مختلفة في (صوبة) خاصة، أرىٰ الشغف يغلف نظراته ونبرة صوته وهو يستعرض مجموعته بإعجاب يقارب الوله! حتىٰ توقف أمامهم؛ مجموعة خاصة سلط عليها أضواء زادت من درجة الحرارة حولها، التفت لي لأول مرة مذ دخلنا الصوبة، رأيت لمعة عينيه وهو ينظر لي، ها قد حانت لحظتي المرتقبة، الآن سيمتدح جمالي وذكائي، وسأرد بسذاجة لأدفعه لاتخاذ الخطوة الأولىٰ، اقترب مني ومط شفتيه بتلك الحركة المثيرة قبل أن يقول:



- انظري... هذه هي مجموعتي المفضلة.

التفت موليا لي ظهره! تيبس جسدي رغما عني وقطع الثلج تسقط علىٰ رأسي، انتشلت نفسي بصعوبة من ذهولي ونظرت للمنضدة، تراصت عليها مجموعة من النباتات المفترسة، نعم أنا أعرفها جيدا، راوحت البصر بينه وبينها، لم أع أيا ممَّ نطق، الأفكار تتنازع برأسي؛ ضجرة غاضبة تارة ولائمة تارة أُخرىٰ، تمالكت نفسي وانتبهت لما يقول، يتحدث بنشوة لا تخطئها أذن صاغية، كيف تستطيع التحايل للحصول ما تتوق له، ما يحييها، تناسيت كل أمنياتي الزائفة وانخرطت معه في حديث علمي حول كيفية جذب هذه النباتات للحشرات حتىٰ تلتهمها، مستخدمة فيرمونات قوية وسائل سكري لزج لإغرائها.

باغتني بما هالني أكثر من هذا الموقف العجيب؛ إذ تهدج صوته وارتعش إصبعه وهو يمده ليتحسس باطن إحداها الذي يشبه المخمل الأحمر وهو يبتلع ريقه وأنفاسه تتلاحق، انتفض جسدي وأنا أسمع تأوهه وقد قبض النبات علىٰ إصبعه غارسا أشواكا كالإبر بجلده لتسيل منه قطرات الدماء.

كدت أتعثر وأنا أجري كالمجنونة صوب الباب هربا من صورته الشبقة هو يمص إصبعه النازف.



على جانبِ الطريق

وقفت علىٰ جانبِ الطريقِ تنظرُ بعينيها الواسعتين للسياراتِ المسرعةِ التي تتسابقُ أمامها في قلق، تتابعُ المارةَ المسرعين بخوف، تتحاشاهم بجسدِها النحيلِ وتبتعدُ عنهم، تتراجعُ للخلفِ تاركةً الأملَ في الوصولِ إليها.

تلك الحديقةُ علىٰ الجانبِ الآخرِ تداعبُ أحلامَها، كلما سمعت أصواتَ الأطفالِ وهتافاتِهم هفا قلبُها لها، تقفُ بجوارِ الجدارِ لتتقي أشعةَ الشمسِ بظلِ عامودِ الإنارة، تغمضُ عينيها لثانيةٍ وتتخيلُ استرخاءها علىٰ عشبها الندي تحت الشجرةِ الكبيرةِ، حيث الظلِ ونسماتِ الهواءِ الخفيفة، تمد يدَها في الهواءِ باحثة عن ملمسِ العشب، فلا تجدُ سوىٰ حرارةِ الشمسِ تحرقُ كفَها الصغير، يسلبُها ضجيجُ أطفالٍ آخرين أحلامَ يقظتِها، تنظرُ إليهم في حذرٍ وترتعدُ عندما تجدهُم ينظرون إليها ويتهامسون، تنتظرُ مرورَهم في توترٍ وتتنفسُ بارتياحٍ بعد أن تجاوزوها، تعاودُ النظرَ للطريق، السياراتُ لا تنقطع، كيف ستعبر؟

تتخذُ قرارهَا وتتقدمُ في عزم، ستجري كالمجنونةِ بخطواتٍ واسعةٍ صوبَ الحافةِ الأخرىٰ.

بمجردِ أن تضع قدمَها الصغيرَ علىٰ الإسفلتِ تداهمُها سيارةٌ مسرعةٌ صارخةٌ ببوقِها في قوة، تقفزُ للوراءِ وتعودُ مسرعةً للجدار، تلتصقُ به لاهثة، تلتقطُ أنفاسَها بصعوبةٍ مع تسارع نبضاتها، تتبخرُ أحلامُها مع قطراتِ العرق، وفي لحظةِ يأس... تودعُ حلمَ الحديقة، ترفعُ يدَها الصغيرةَ في استكانةٍ وتبدأُ لعقَها في هدوء.



عله يأتي

كالسمِ يسري بين أوردتِها... تسلل مزعزعًا الطبقةَ الهشةَ من استقرارِها، أبىٰ أن يهملُها في جلستِها علىٰ مائدةٍ بكرسيٍ واحدٍ بأحد المقاهي «لو كنتَ رجلًا لقتلتك» قالتها بتأففٍ بينما ضحكَ الانتظارُ منها وهي تبغضُه، ولا تستطيعُ الفكاكَ من بين مخالبه، تنظر لساعتِها بسخط، لم يعتد التأخرَ عليها كل هذا الوقت، تمر الدقائقُ عليها ثقيلةً وهي تتابعُ وجوهَ الناسِ بحثًا عنه، تزفرُ بحنق، وتُخرجُ من حقيبتِها مفكرةً صغيرة وقلمًا، تناولتَه ونظرت له في تبجيل، فتحت ورقةً فارغةً وأغمضت عينيها وزفرت

لا... لا شيء «أين أنت؟ ماذا فعلتُ لكَ كي تتركَني أنتظر هكذا؟!»

قطع عليها النادلُ صخبَها ووضعَ أمامها فنجانًا من القهوة، نظرت للفنجانِ بلهفة، علىٰ صفحةِ وجهِه الذهبي خيلَ إليها أنها تراه، ابتسمت وحملتَه برفقٍ وارتشفت، وضعت الفنجانَ ولا تزال يداها تحتضناه، دارت بعينيها بحثًا عنه في الأركان...

في لوحةِ المركبِ الشراعي التائهِ بين الأمواج.. في المصباحِ المرتعشِ ضوئه، ليس هنا!

قَلبَت صفحةَ المقهىٰ واتجهت بكل جوارحِها إلىٰ الشارع، يعزلُها الزجاجُ عن ضجيجِه، قلبت بصرَها بين أضواءِ السياراتِ وأحجارِ الرصيفِ علها تجده، قبل أن تصيبَها ركلةُ اليأسِ استوقفها شيخٌ يجلسُ القرفصاءَ علىٰ حافةِ الرصيف، للحظاتٍ نست مُنتَظرها

وراقبته، ينظرُ باهتمامٍ إلىٰ اللا شيءٍ أمامه، من بين تجاعيدِ وجهِه طلت نظرةٌ شغوفةٌ جدًا، نظرةٌ تشتهيها وتفتقدُها!

اتسعت عيناها وهي تراقبُه وقلبُها يحدثُها بأن وصولَ مُنتظَرها أصبحَ وشيكًا، مد الشيخُ أناملَه المرتعشةَ يرسمُ شيئًا في الهواء، تسارعت نبضاتُها وعيناها تلملمُ خطوطَه الوهميةَ كصفحةٍ بيضاءٍ تتوق لأن تتزينُ بها، توقف الرجلُ فجأة ودسَ يدَه في معطفه، ضاقت حدقتاها وهي تحاول اختراقَ قماش المعطفِ المهترئ، أخرج قصاصةَ ورقٍ وقلمٍ وبدأ يكتبُ باهتمامٍ واضحٍ، رفعت حاجبيها في هلعٍ رافضةً التصديق «لا.. كيف تخطئُني وتتنزلُ عليه!»



وشاحها

احتشد رجالُ القريةِ جميعهم في (دوارِ) كبيرهم لتقديم واجب العزاء، لم يتخلف أي منهم خوفًا منه أو طمعًا في رضائه، أما هو..

فلم يبد متأثرًا بالحدث، لم يخدش الحزن ملامحه الخشبية الحادة، جلس الجميع مستمعا لآيات القرآن التي يتلوها القارئ في خشوع، لم يجرؤ أحد على التطلع لوجهه الذي يختفي خلف شاربه الضخم.

بدا واجمًا شاردًا عنهم، حامت روحها حوله تستجديه وتتوارى خلف ملامحه اليابسة، جلس ساهمًا ممسكًا عصاه العاجية بيسراه التي زين خنصرها خاتم فضي ضخم مطعم بحجر كبير من الفيروز.

نهض فجأة فصدق الشيخ دون أن يتم التلاوة، اصطف المعزون في سرعة، سارعوا في تقديم عبارات التعازي وتقبيل يده، لم يجب أي منهم، رفع يده اليمنى فتوقف الجميع، تركهم دون استئذان ودلف للدوار.

صعد السلم قاصدًا غرفتها، أغلق الباب خلفه، أسقط عصاه العاجية، جرجر قلبه المذبوح و توجه لسريرها النحاسي، التقط وشاحها من إحدى زواياه، ضمه لصدره ثم رفعه لأنفه، لا زالت رائحة عرقها المشبعة بروائح أدويتها فيه، ارتجفَت أوصاله، تدثر بوشاحها وخر ساقطا على ركبتيه باكيًا



منظارٌ مكبرٌ.. وعدسةٌ مغطاة

يختلطُ صوتُ المروحيةِ بطقطقاتِ جذوعِ الأشجارِ وأصواتٌ أخرىٰ تصيبُ من يسمعها بالرهبة، تطوفُ حول الحريقِ الهائلِ حاملةً قائدهَا ومراسلَ أحدِ المحطاتِ التلفزيونيةِ الوطنيةِ وأحدِ المصورين المحترفين، يلتفُ قائدهُا بمهارةٍ حول الأدخنةِ الرماديةِ الكثيفةِ مما يسمحُ لحاملِ الكاميرا أن يركزَ عدستَه علىٰ ألسنةِ اللهبِ الجائعةِ التي تلتهمُ بشراهةٍ كلَ ما تطاله...

المراسلُ بحماسةٍ وغضب:

(حريقٌ هائلٌ يلتهمُ مساحاتٍ شاسعةً من الغابات، تنتشرُ ألسنةُ اللهبِ في سرعةٍ شديدةٍ مسببةً كما يظهر سحابةً كثيفةً من الدخانِ الرمادي يتوسطها دخانٌ أسودٌ كثيف، يبدو مركزُ الحريقِ عند مصنعِ (البتروكيماويات) الذي يملكه رجلُ أعمالٍ وسياسي الأشهر، مما يدفعنا للتساؤلِ حول شروطِ الأمنِ والسلامةِ بالمصنع، انتظرونا في تقاريرٍ لاحقةٍ للوقوف علىٰ أسبابِ الحريقِ وأخر المستجدات)

إرسال التقرير...

إشارة لقائد المروحية...

المراسل في وجل... يشوبه قلق:

(حريقٌ هائلٌ يلتهمُ مساحاتٍ شاسعةً من الغابات، تنتشرُ ألسنةُ اللهبِ في سرعةٍ شديدةٍ مسببةً كما يبدو سحابةً كثيفةً من الدخانِ الرمادي، مصدرُ الحريقِ غير معلومٍ حتىٰ الأن، في أقلِ من ساعتين

التهمت ألسنةُ اللهبِ ما يقارب ثلثَ أشجارِ الغابة، يلح علينا تساؤل...

لماذا تأخرت قواتُ الدفاعِ المدني عن القيامِ بواجبِها؟ ألا يتطلبُ حريقٌ هائلٌ كهذا تدخلُ الأمنُ الوطني؟ لصالح من تترك النيران لتجرف هذه المساحاتُ الشاسعة؟ انتظرونا في تقاريرٍ لاحقةٍ للوقوفٍ علىٰ أسبابٍ الحريقِ وأخر المستجدات)

إرسال التقرير...

إشارة لقائد المروحية...

المراسل في استسلامٍ وحيرة:

(حريقٌ هائلٌ يلتهمُ مساحاتٍ شاسعةً من الغابات، في واحدةٍ من أبشعِ الكوارثِ الطبيعيةِ والتي لم نشهدها منذ أكثر من خمسين عامًا، تتسبب سرعةُ الرياحِ ودرجاتُ الحرارةِ العالية في انتشار النيران بشكل مفجع، أمام حريق كهذا يقف الإنسانُ بكل ما أوتي من علمٍ عاجزًا أمام انتقام الطبيعة، نبتهل أن تشملنا العناية الإلاهية بالرحمة ويهطلُ المطر ليسيطر عليه، انتظرونا في تقارير لاحقة للوقوف... علىٰ اخر المستجدات)

إرسال التقرير...

تتصدر أخبارُ الحريق واجهاتِ الصحف...

«رئة الأرض تحترق، الاحتباس الحراري يتسبب في أبشع كارثة طبيعية تشهدها منطقةُ الغابات، تشير أصابع الاتهام لـ...



تتوسط الصفحةَ مجموعةٌ من الصور لدول العالم الثالث... من بينها عمالُ أمام فرنٍ في مصنع... رجال لا يلبسون فوق عظامهم إلا جلودهم السمراء، وما يستر عوراتِهم مجتمعين حول أعوادِ الحطبِ المشتعلةِ تحت قدرٍ لا يحوي سوى الماء... عشرات الدراجات البخارية تتقدم موكبا مهيبا لرئيس إحدى دول العالم الثالث.





أحلامٌ معقلةٌ بخيوطٍ من حرير

علب ألوان زيتية.. فراشي.. كوب به محلول لنقعها.. قطعة قماشية ملطخة ببقع الطلاء.. ومنفضة سجائر قاربت علىٰ الامتلاء علىٰ حرفها سيجارة مشتعلة، اختطفها ليضعها بين شفتيه بنهمٍ، التقط نفسًا طويلًا عبق صدره بالدخان، واحتفظ به وهو يعيدها للمنفضة ويتناول الفرشاة الدقيقة، نفس الدخان في هدوءٍ بوجه الدمية التي بين يديه، يضع اللمسات الأخيرة باللون الأسود بعد أن أعاد تلوين الوجه، حدد العينين بدقة وأبعد الدمية قليلًا ليقلبها بين أصابعه، ابتسم برضا وهو يتفحص وجهها الباسم ووضعها جانبًا بحرص، أرخىٰ خيوط التحريك برفقٍ وبدأ بتغطية علب الألوان وتنظيف الفراشي.

انشغل دقائق عن دميته، أمسك قطعة قماش يجفف بها فرشاة ونظر للدمية، سقطت من بين أصابعه وشهق بصوت مسموع وهو يتناولها، اتسعت عيناه وهو يدقق النظر فيها...تملكه العجب من تلك النظرة الحزينة المرتسمة علىٰ ملامحها التي انتهىٰ توًا من رسمها! أسرع بمزيل الطلاء ليحاول تعديلها، دقائق أخرىٰ وهو ينظر لها بشك وقد أعادها كما يجب أن تكون، وضعها بتأن دون أن يرفع بصره عنها...

"الشاطر.. هي صفتي، وحسن.. هو اسمي

سجين أنا مكبل بتلك الخيوط التي تقيدني.. تحركني.. تدخلني عالمًا من المغامرات رغمًا عني.. وأنا منصاع بلا إرادة لمحرك الدمىٰ، أتحرك كيفما يشاء إلا قلبي الذي وقع أسيرًا لمن تستطر خلف ستائر

هذه الشرفة، آه لو أستطيع الحصول على بعض التراب السحري.. لحصلت على جسد بشري وأميرتي، لأختطفها وأهرب بها لنحيا كما نشاء نحن ونهوى"...

يتناول صانع الدمى دميتها في إعجاب؛ فقد نحت ملامحها الجميلة بإتقان، عدل من زينتها وشعرها ووضعها بحرص في مكانها بجوار الشاطر حسن، نهض خارجًا من الحجرة فلم يرها تميل بهدوء لتستند عليه واضعة رأسها على كتفه..

"ست الحسن أنا.. حبيسة القلعة التي يتغنى الناس بحسنها ولا يروا دموع ساكنتها.. آه يا حسن من تلك الخيوط التي تباعد بيننا، تأكل الحسرة قلبي الخشبي وذلك البغيض يتحكم في، يسكنني قصرًا مرتفع السور، يغلق عليَّ الأبواب، يحرمني نسمات الحرية و.. يحرمني قربك"

يعود صانع الدمي للغرفة فيرتسم الغضب على ملامحه وهو يرى الدميتين المتجاورتين، يحمل ست الحسن ليضعها في صندوق زجاجي، ويضع الشاطر حسن في صندوق آخر، بينما يصرخ كل منهما أن حررونا...

ينظران لمؤشر الكتابة باستجداء، ينتظران الحروف التي تضغطها أصابعي علها تكتب نهاية سعيدة، علها تكون مقصًا أو سحرًا يحررهما، أو علها تضغط زر المحو، فيتلاشيا مع حروف عشقهما الممنوع.



دماءٌ على جدارِ الذاكرة

ألمٌ رهيبٌ يعتصرُ صدرَه وهو يضغطُ جرحَه النافذَ بكلتا يديه، تعجزُ رئتُه النازفةُ عن احتواءِ الهواء، يتسللُ طعمُ الدمِ لفمهِ وتحملُ رائحتُه المعدنيةُ رائحةَ الموتِ معها لأنفه.

قبل أن تخورَ قواهُ مد يدَه الملطخةَ بالدماءِ ليستندَ علىٰ البئر، وسمتَه بأثرِها وهي ترتخي ببطءٍ نحو الأرضِ تاركةً كفًا دمويًا ذا أصابعٍ طويلة، جالت روحُه جولتَها الأخيرةَ بين ذكرياتِه قبل أن يسلمَهاَ بهدوء، وسط الوجوهِ المرتبكةِ وجهٌ لطفلٍ يبكي يجثم فوقه منتحبًا مناديًا:

- أبي.

رفع الصغيرُ كفَه المغطاةَ بدماءِ والدِه أمام عينِه وقد صمت فجأة، جفت الدماءُ واستطالت الأصابعُ وغزاها الشعرُ الأسود، تجعد جلدهُا وغطاها المشيب...

ضم الشيخُ أصابعَه واستند علىٰ البئرِ مجترًا ذكرياتٍ لاكته بين أنيابِها...

سبعون عامًا أو يزيد مذ جفت آبارُ القرىٰ حولَهم وبقىٰ ذاك البئرُ الذي راقب والدَه وهو يحفره، أفواجٌ من الناسِ تهوي للبئرِ طلبًا للماء، ووالدُه يسقي الناسَ حبًا منكهًا بماءِ البئر، تلك الجماعةُ من الغجرِ الذين اقتحموا عليهم أرضهَم، يتزعمهم رجلٌ ذو شاربٍ كثٍ وعينين تقدحان شرًا مدعين ضرورةَ حمايتِهم لماءِ البئرِ الوحيدِ الباقي...

صوت الرجلُ الأجشُ يخطب في الناسِ مرهبًا إياهم من ضياعِ ماءِ البئرِ إن لـم يحرسُـه ورجالُـه مقابـل هبـةٍ بسـيطةٍ تُجمـع مـن النـاس، والـدُه الحبيـبُ يقـفُ وحيـدًا مـدافعًا عـن البئـرِ وحـقِ الجميـعِ في مياهِـه دون وصـي... أزيـزُ الرصاصـةِ المنطلقـةِ مـن مسـدسٍ ذي الشـاربِ تقطـعُ الهواءَ بجانب أذنِه لتستقرَ في صدرِ والدِه...

أكثر ما استغربَه حينها كطفلٍ استكانةَ النـاسِ ورضـوخَهم للغجـرِ دون مقاومة، حتىٰ أنهم تركوا أباهً مدرجًا بدمِه بجوارِ البئرِ ليـومين، لـم يَثُر منهم سوىٰ البئرِ الذي جفَ ماؤه حزنًا علىٰ صاحبه.

أغلق عينيه أسـفًا عليـه وعلـيهم منسـلًا مـن بـراثنِ ذكرياتِـه، تنـامىٰ لمسامعِه صوتُ طفلِ صغيرٍ يسألُ والدتَه عن الكفِ الدموي الـذي لـم يستطع الزمنُ محوه، اتسعت عينـاه وهـو يسـمعها تحكـي بلكنـةٍ غريبـةٍ يمقُتها:

- هو كفُ جدِكَ الكبيرِ الـذي غمسـه في دمِ الرجـلِ المشـئومِ الذي تسبب في جفافِ البئرِ بعد أن خلصَنا منه.



دبيبٌ فوق الفراغ الأبيض

هذا الجسدُ الجديدُ يناسبُني تماما...

اللونُ الذهبيُ يليقُ بي كثيرًا، وذلك الشعرُ الطويلُ المناسبُ مزينًا غرتي منسدلًا على كتفي، يشاغبُ النسماتِ وأنا أجري منطلقًا مزهوًا بعضلاتي القوية، مزينةً جسدي بتفاصيلِها الدقيقةِ التي تبرز مع كل خطوةٍ أخطوها، كم يروقني حقًا، للقوةِ الساريةِ في جسدي نشوةٌ عجيبةٌ تسري بعروقي مطالبة بالمزيد، فأركض وأركض وأركض و...

- أليس هذا ما قيل عن الأجسادِ السابقة؟
- لا هذا الجسدُ مثالي، يسطعُ الجمالُ من كل خلاياه.
- ألم تكن الفراشةُ آيةُ الجمال؟
- كانت بديعة، تنتقل بين زهرةٍ وأخرى لترتشفَ الجمالَ وترفلُ فيه، لكن رقتَها الشديدةَ وضعفَها أحالاه قبحا.
- وماذا عن العصفور؟ ألم يكن مثالُ الحريةِ والروعة؟
- ريشته اللامعة وألوانُه الزاهية أسرتني، حلقتُ معه لعنانِ السماء، لامستُ النسائمَ بجناحي، التحفتُ الشمسَ وسكنتُ أعالي الشجر، غردتُ أبدعَ السيمفونيات، لكن ذلك لم يكن كافيًا؛ ينقصه القوة.
- يا له من جحود! هو طبع البشر فلا لوم.
- كفى، اتركني لماذا تفسدُ عليَّ متعتي دوما!



انســحب ضــجرًا ليختبــئ خلــف عجلــةِ كرســيها المــدولب، بينمــا تعــالىٰ الصــهيلُ والتهمــت الحــوافرُ الحــروفَ التائهــةَ فــوق الفراغِ الأبيض.

دفعت كرسيَها نحو الشرفة، أزاحت الستائرَ لتنطلقَ عبرها في قفزةٍ هائلــةٍ لتطفــئَ نــورَ الشــمسِ ببريقهــا الــذهبي فتنمــو الحشــائشُ مــن الإسفلتِ تحت حوافرِها وتُنبت أعمدةُ الإنارةِ الأوراقَ الخضراء.

• • ✿ • •



ابن أبيه

لن أختبئ مرة أخرىٰ...

سأجلس علىٰ ذلك الكرسي الذي يتوج الناصية لأرىٰ كل المارة ويرونني، لن أطلب اليانسون وأنا أفكر في الجنيهات الفضية القابعة في قاع جيبي، سأطلب القهوة ولتكن سادة أيضا، وسأطلب الشيشة، سآخذ نفسا عميقا عنيفا لتزغرد أمامي وتشتعل انتشاءً بينما ينظر لي ذلك المتفاخر بأنه ينهي حجره في نفسين بإعجاب، لن أسمح لها بأن تفسد علي متعتي البسيطة...

- محمود.

« تبا، ليتني تذكرت ورقة من فئة الخمسة، كنت شربت بها فنجان القهوة»

- أعرف أنك تسمعني، رد علي.

«صه يا امرأة، اغلقي فمك هذا الذي لا يُسمعني إلا الطلبات والمواعظ»

- محمود، لا تتظاهر بالصمم ولا تتجاهلني، قم وأفعل شيئا مفيدا.

«يا الله، ألا أستطيع أن أنفرد حتىٰ ببنات أفكاري!

آه يا كتلة نكد تمشي علىٰ قدمين، ألا تبتلعين ريقك فتتسممي، أو يلف لسانك المشقوق حول رقبتك فيخنقك.

فلتذهبي للجحيم أيتها الثرثارة»



اضجع في كرسيه واضعا رجلا فوق أخرى، ليتدلى (الشبشب) من قدمه الصغير ويأخذ نفسا عميقا من سيجارته وينفسه في الهواء في تلذذ.

- حسنا أنت أردت هذا.. ماما.. محمود يرتدي شبشب بابا ويضع عقب سيجارته في فمه.





دخانٌ أسود

كمهرٍ صغيرٍ يتقافزُ فرحًا كان يجري وسط الحقولِ الخضراءِ، متعلقةً عيناه بزوجتِه التي تسبقه بأمتارٍ يتبعها صوتُ ضحكاتِها، تلتفت له فتلتفُ ضفيرتاها في الهواءِ لتحتضناها وتعاودان الطيرانَ خلفها، يرقص قلبُه طربًا مع ضحكاتِ صغيرتِه التي تجلس في حجرِ والدتِه أمام بيتِه الريفي البسيط، يجري بسعادةٍ وراء زوجتِه مبتعدًا عنهما فتبتعد عنه لتغيب عن ناظريه، تختفي ابتسامتُه ويبدأ القلقُ يداهمه، يسرع ليلحقَ بها فتخونُه قدمُه ليسقط في هوةٍ سحيقةٍ وكأن الأرضَ انتهت فجأة، يسقط ملوحًا بساقيه وذراعيه في الهواءِ وقد ازدادت نبضاتُه سرعةً حتىٰ كاد قلبُه أن ينفجر، تلاحقت أنفاسُه وشعر بانقباضٍ في صدرِه وهو يهوي ناظرًا للشمسِ وهي تبتعدُ فيدخل في ظلامٍ دامس.

فتح عينيه فجأةً وانتفض جالسًا ممسكًا بصدرِه في ألم، كاد كتابُ (درويش) الذي وضعه تحت رأسِه أن يسقط فأمسكه بلهفةٍ ووضعه علىٰ حافةِ السور، دوار رأسِه يجعلُها تميل تحت ثقل الخوذة، يحاول بلعَ ريقِه فيستعصىٰ عليه إلا من لزوجةٍ مرةٍ تغلف حلقَه.

يرفع زجاجةَ المياهِ الفارغةَ ويرجُها، تأبىٰ شفتاه المتشققتان الابتسام، يلقيها أرضًا باستسلام، خمسةُ أيامٍ مذ تركوه فوق هذا البرجِ ليقضي مناوبتَه في الحراسةِ التي عادةً ما تستمر لاثنتي عشرة ساعة، عقلهُ المشوشُ يخلط الأحداثَ في سيرياليةٍ مبهرجة، تمزج صوتَ أمهِ بآخر ما سمع من جهازِ اللاسلكي قبل أن تنفدَ بطارياته:

ششـشـــــــــــــش..موقعك..خطوطنا...تعــــــــــود لي..ششششش.العدو...حبيبي. لازم... ششششششش...

وكلمات درويش.

تلعق الهلاوسُ عقلَه علىٰ مهل، يخيلُ إليه أنه يرىٰ أحدهَم قادمًا، يعتدل في جلستِه ويمسك بمنظارهِ المكبرِ بيدين مرتعشتين وينظر فيه، إنها صغيرتُه تجري فوق الرمالِ هناكَ، يمد يدَه ليمسكها فيسقط المنظارُ منهما، يخشىٰ أن يغمضَ عينيه فيسقط في الهوةِ السحيقةِ التي تلازمت والنوم لديه، شارفت الشمسُ علىٰ المغيبِ، تعجب من لهفتِه لحلولِ الظَلامِ وما يرافقُه من إحاطةِ قطيعٌ من الذئابِ للبرج، في الليلةِ السابقةِ شاركهم العواءَ وبكاهم وهم ينصرفون، لا يقوىٰ ذراعاه اللذان اعتادا حمل الفأسَ علىٰ حمل البندقية، ماعاد يهمه أيأتيه عدوٌ أم صديق، تكالب عليه العطشُ والجوعُ و... الوحشة، أمسك الكتابَ ووضعه خلف رأسه، أغمض عينيه وهاجرت روحُه إليهم، الحقلُ الأخضر.. زوجتُه الضاحكةُ تسبقه.. ضحكاتُ صغيرتِه ووالدته.. وتنقطع الأرض.. ويسقط...

يهوي في طمأنينةٍ وراحةٍ مودعًا الشمس، يهذي بكلماتٍ لا يعرف من أين أتته:

«ستنتهي الحربُ..

ويتصافح القادةُ..

وتتبقىٰ تلك العجوزُ تنتظر ولدهَا الشهيدَ

وتلك الفتاةُ تنتظر زوجَها الحبيبَ

وأولئك الأولادُ ينتظرون والدَهم البطلَ

لا أعلم من باع الوطن

ولكنني رأيت من دفع الثمن»



أحمال

ينسابُ الدمعُ في هدوءٍ علىٰ وجنتيها، فلا تتكلفُ عناءَ إخفائِه، أو ربما لم تعد تأبهُ بنظراتِ الشفقةِ التي تتابعُها من الركابِ حولها، تضغطُ بشدةٍ دون وعيٍ علىٰ المظروفِ الأبيضِ المزينِ بشعارِ المستشفىٰ الحكومي الذي غادرته منذ ساعةٍ أو أكثر.

علىٰ المظروفِ كتب اسمُها بإهمالٍ يتناقضُ وهولَ ما يحوي، تشتعلُ خلايا مخِها بأفكارٍ سوداويةٍ أكثر مما تشتعلُ بفعلِ علتِها، ناولتها الممرضةُ المظروفَ الذي يحملُ نتائجَ فحوصاتِها بإهمالٍ وامتنعت عن الإجابةِ عن تساؤلاتِها، هاجمها الخوفُ بضراوةٍ فخارت رجلاها ولم تقويا علىٰ حملها، كيف ستنتظرُ أسبوعًا للعرضِ علىٰ الطبيبِ ليخبرَها بما كشفتهُ فحوصُها؟ ماذا ستفعلُ إن قالها؟ كيف سيتحملُ جسدُها العلاجَ الذي يُصَبُ كنارٍ داخل الخلايا ليحرقَ الجيدَ منها مع الخبيث؟ وهناء.. وحيدتها...

«آهٍ يا ابنتي، ظلمناكِ يومَ أحضرناكِ لهذه الدنيا، ما أورثكِ أبوكِ إلا فقرًا وما استطعتُ أن أهبَك من جمالِ الشكلِ شيئًا»

أغمضت عينَيها فداهمتها صورُ المريضاتِ في القسم، وجوهٌ صفراءٌ وأجسامٌ أكلها العلاجُ أكثرَ من المرضِ، نساءٌ تبدو الحسرةُ في ملامحِهن، فقدنَ رموزَ أنوثتِهن، اجتثت ايدي الجراحين ارحامًا واثداء، واجتث (الكيماوي) تيجانَ رؤوسهن، ما همها إلا صورَ

المرافقِينَ لهن، علىٰ اختلافِ أعمارِهِم وأجناسِهِم جمعتهم الحسرةُ والألم، فتحت عينيها لتزدادَ دمعاتُها وأنفاسُها تهتفُ (هناء)...

مرت محطاتٌ لم تحصْها، قارب القطارُ علىٰ آخرِ محطاتِهِ، ارخت عينيها لما تحملُ من همٍ مغلف، حاولت أن تتحسسَ أملًا بالنجاةِ بين أوراقِهِ،

«اللعنةُ عليكم جميعًا، أما من عاقلٍ بينكم؟ أما من رحيم!؟ كيف تضِنون علىٰ من يقبضُ الخوفُ قلوبَهم بكلمةٍ نعم أو لا؟

هو سؤالٌ بسيطٌ جدًا نسأله جميعًا، سنحيا؟

تبا للفقرِ الذي ألجأنا إليكم»

تعاودُ الهتافَ «هناء»

يقفُ القطارُ، ينساها من رافقوها الرحلةَ ويمضون لحالِهِم، تهمُ بالنهوضِ فيكبلُها ثقلُ ما تحملُ بمقعدِها، تنظر له بضيقٍ ما كان ينقِصُها إلا المرض!

تحاملت لتقف، جرجرت رجليها والمظروفَ يزداد ثقلًا، في لحظةِ عبورِها البابَ قرر أن يريحَها، فانسل من بين أصابعِها ليسقطَ عبر الفراغِ الضيقِ الفاصل بين عربةِ القطارِ والرصيف، صاح عليها أحدُ الشباب:

- لقد وقع منك شيءٌ يا سيدتي.

أجابته في راحةٍ وخفة:

- أحملُ ما يكفيني.



بريقٌ فضيٌ خاطف

ولدن جميعَهن من رحمٍ واحد، تبدأ حياتُهن القصيرةُ باحتفاليةِ الميلادِ وتنتهي...بالسقوطِ في عالمِ النسيان، علىٰ جزيرةٍ تحكمُها نون النسوةِ يعشن ترعاهن الأم، ينسجمن في تناغمٍ ومن تتشابك وتقع بالمشاكلِ منهن تتكفلْ بها الأمُ.

كن جميعًا ينتظرن الوليداتِ بشغفٍ حتىٰ أتت لحظةُ ميلادِها، ولدت مختلفة؛ تشعُ بضوءٍ فضيٍ براقٍ تحت أشعةِ الشمس، نظرن لها بتعجب، دائمًا ما تباهين بلونهن الأسودِ الفاحم، وافتخرن به حتىٰ ولدت هي، تبادلن نظراتِ الحيرة، تساءلن:

- كيف وُلدت هكذا؟

«ولدتُ مميزةً أعرفُ ذلك، أرىٰ نظراتِ الحيرةِ الممزوجةِ بخوفٍ في أعينهن، كلما حاولتُ التقربَ تفرقن وابتعدن، أنا أختهن؟!»

تابعنها بتوترٍ وهي تنمو وتزدادُ طولًا وتألقًا، همست بعضهن وقد أشعلت قلوبَهن الغيرةُ:

- هل تعتقد أن لونَها وبريقَها الذي يخطفُ الأبصارَ يميزُها؟ أفيقي أختاه أنت غريبةٌ بيننا.

بينما تجنبتها بعضهن خوفًا منها:

- هي لا تشبهُنا، لا تخالطوها.

اختلفت ردودُ أفعالِهن حيالها ولكنهن تجمعن علىٰ قرارٍ واحد..

إحساسُها بالرفضِ أصابها في البدايةِ بالحيرة، ما اختارت لونَها ولا تعرف سببَ اختلافِها، كل ما أرادته أن تختلطَ بهن وتأخذَ مكانَها في تلك الخصلةِ اللامعة، كلما حاولت التوددَ لهن زدنها جفاء، تسلل الغضبُ لقلبِها وهي تعجزُ عن تقبلِ رفضهن...

- إذا كنتن لا تريدونني فشاهدونني جيدًا وأنا أخطفُ الأبصارَ بلوني الرائع.

«أماهُ انا ابنتك، أنا المميزة، هن يرفضونني، انظري إلي وأنا أنيرُ غرتك»

لشدةِ دهشتِها ودهشتهن كن جميعًا كمن توقف بهن الزمن..

يدُ الأمِ تمتدُ لتحتضنَها، يحسدُونها، تنام بفخرٍ بين إصبعي الأم، ذهولٌ وخوفٌ وهن يتابعونها وقد اقتُلعَت من منبتِها، شماتةٌ وتشفي.

قررن الاحتفالَ بتفضيلِ الأمِ لهن وإقصائها عن عالمهن المصفف بعناية، في غمرةِ احتفالِهن لَم يلَحظن أختيها الفضيتين اللتين نبتتا مكانها.



الغية

مصابٌ بخطبٍ ما، أخبرت الطبيبةُ والدتَه أن دواءَه في التعرضِ للشمس، فاعتادت الصعود به يوميًا لسطحِ المنزل، تجلس بالقربِ من غيةِ الحمام، تحرره من ملابسِه لتتمكنَ أشعةُ الشمسِ من مداعبةِ جلده الرقيق، اعتاد أن ينامَ في حجرِها محتضنا ثديَها وعيناه متعلقتان بالسماءِ حيث الحمائمِ الحائمةِ بين طياتها، يتنامىٰ هديُلها لأذنيهِ فتسكنُ نفسُه ويغمضُ عينيه محلقًا معها في السماء.

عشر سنواتٍ مرت لم يمنعه مرضٌ أو طقسٌ قاسٍ من الصعودِ للحمام، راقبه طويلًا حتىٰ تشبعت عيناهُ بجميعِ تفاصيِله، استمع باهتمام للهديلِ حتىٰ فطن مدلولاتِه.

تلك العلاقةُ الخاصةُ بين الطفلِ الصغيرِ والحمامِ حيرت من حوله، فالحماماتُ تتسابقُ إليه فور صعوده تقف فوق رأسه وعلىٰ كتفه في طمأنينة غير معتادة، أثارت العلاقة عجب الجميع وحزن والديه، كثيرًا ما أفضىٰ والده بكلماتٍ ذبلت حروفها حزنًا وألما علىٰ ولده الذي اشتهىٰ أن يراه ولو لمرة واحدة يجري بين الأطفال في الحارة أو يلعب الكرة كما يلعبون، فتجيبه دمعات الأم بأن الله يحب صغيرها وأنه اصطفاه، أما صغيرهما فلهوه بين من استحوذوا علىٰ قلبه كان شغله الشاغل.

وذلك البطل الأسطوري الذي ينافسه في عالم الحمام، لم تسكن قلبه الغيرة نحوه، بل حلم بأن يكون مثله ذات يوم، أخوه الأكبر، كان



يصعد معه يوميًا للغية فيراه وهو يتسلقها في خفة ليجلس فوق أحد زواياها مستخرجًا راية بيضاء علقها بحزامه فاردًا إياها في الهواء، كان ينظر لأخيه بانبهار وقد أعمت عينيه أشعة الشمس الساقطة عليه، فيتحرك قليلًا ليستظل بظله الممتد علىٰ الأرض، كان أخاه يزداد ضخامة وهو يلوح بالراية في السماء، فترفرف الراية السابحة بين نسمات الهواء، ويبدأ السحر...

يتحرك سرب الحمام في حركات انسيابية متوافقة مع إشارات الراية، تلمع عيناه وهو يتابع أخيه الذي يلوح بالراية في حركات دائرية متقاطعة فيغير الحمام مساره، تتغير ملامحه ويتحول الانبهار للجدية التامة، يبدأ في تقليد حركات أخيه بكل احتراف وإتقان، متجاهلا ظله ذا الثلاثة أرجل.



جلبابٌ خشن

- أمي... لا تحملي هما.

قلتُها بثباتٍ غريب، أراها تجهشُ بالبكاءِ في حضنِ أختي الكبرىٰ ممسكةً بملابسِها، بينما تحتضنُها هي بحنانِ أمٍ وتربتُ علىٰ ظهرِها، تختلطُ دمعاتُهما لتعتصرَ قلبي الذي طُهيَّ علىٰ مهلٍ في موقدِ الحياةِ فصار كفخارةٍ صلبةِ المظهر، سهلةُ الكسر، خَرَجَت أختي الوسطىٰ من حجرتِه ودمعاتُها تنسابُ في هدوءٍ علىٰ وجنتيها، نظَرت لنا بنظراتٍ خاوية والتفتت لي، خرجت الكلماتُ متلعثمةً من شفتيها:

- هو يسألُ عنك.

فتحتُ بابَ حجرتِه، ممددًا علىٰ سريرِه الذي حُرم علىٰ أختيَّ الاقترابَ منه عمرا، يصارعُ بما تبقىٰ لديهِ من حياة، راقبت صدرَه الذي يعلو بصعوبةٍ وينخفضُ فجأة، ليئنَ مع الشهقةِ التي تليها، اقتربتُ منه ولا أعرفُ أهو حزنٌ أم غضبٌ ذلك الذي يتنازعُ قلبي وعقلي؟ رفع بصرَه لي، طفرت دمعاتٌ أراها لأولِ مرةٍ منه، أشار لي بأصابعٍ مرتجفةٍ لأقترب، جلستُ علىٰ حافةِ السريرِ بجوارِه، جاهد ليخرج كلماتٍ بعثرتها سكراتُ الموت:

- لقد سامحنني... لم أقلها لهن يوما، وها أنا أعجز أن أنطِقها.

أشرت له:

- لا تتكلم يا أبي، ادخر ما لديك لالتقاطِ أنفاسك.

أغرقته دمعاتُه والألمُ ينهشُ ما تبقىٰ فيه من حياة:

- لم يكن جفائي عليهن قسوة، كنت أخافُ عليهن يوم أن يقفن وحيداتٍ أمام طوفانٍ لا ينجو منه غير الأشداء، خفت أن تلوكَهن الألسنُ والأنياب، ظلمتهن كثيرا... وسامحنني، (وأنتَ)...

تقطعت أنفاسُه وهو يغالبُ البكاءَ ويمسكُ بيدي بما تبقىٰ لديه من قوة:

- أنتِ يا ابنتي أكثرَ من آذيت، قتلتُكِ ألف مرةٍ كل يوم، اغفري لي يا ابنتي.

وقعت كلماتُه عليَّ كالصاعقة، أغفر له! ماذا أغفر؟! كيف لي أن أغفر!

عجز لسانُه عن النطقِ ومازال يكررُ طلبَ الغفرانِ بعينيه، لُجِمَ لساني وأنا أراه يلفظُ آخر أنفاسَه، جاهدتُ نفسي لأقولها، لملمت حروفَها وهممت أن أنطِقها، سبقني الموتُ واختطف آخرَ أنفاسه، تسللت دمعةٌ حيرىٰ من عيني التي لم تتعودْ البكاء، قلتها وكأنني أزيح جبلًا عن كاهلي:

- سامحتُك يا أبي.

سحبت يدَي ونهضت، تطلعت له بعينين خاويتين سحبت جلبابَه وغادرت الغرفة، رأتني أمي وأختاي علىٰ الباب فصرخن وعلا النحيب، دخلت غرفتَي، نظرت لنفسِي في مرآتِي الصدئة، مررت أصابعي علىٰ رأسِي الحليق، فتحت خزانتَي وأخرجت آخر ما ارتديت من ثيابِ طفولتِي، قَطَعتهُ لشرائطَ طويلة، ارتديت جلبابَه وذهبت لأكفن جثمانَه ببقايا أنوثتي.



قبرٌ من زجاج

حول المقامِ أحومُ تحملني أدخنةُ المباخر، أترنح مثقلًا بأناتٍ ونحيبٍ يزيدان عجزي، يتجمعون حولي مستنجدين متباكين متوددين، كفوا كفوفَكم عن سياجي الذهبي، عيونُكم المتضرعةُ توخزُ خضارَ مخملي فأغمضوها، صوتُ المؤذنِ يريحني من همهماتِكم والشمسُ الغائبةُ تقربُ مبتغاي.

«يا ألله.. كم أتوقُ إليها!..

عيناها الحزينتان تزينانِ أسوارَ سجني الأبدي، أهيمُ بين الوجوهِ باحثًا عنها، أتتني منذ زمنٍ لا أستطيعُ تمييزَه من مرقدي، تلتجئ للمقامِ بين الأضواءِ الخضراءِ باكية، تناجيني.. أطالعُها ولا أستطيعُ مسها وكأنني أراها من داخلِ كرةٍ زجاجية، تأتيني ساعيةً... آه لو تدري بأنني لو أستطيعُ السعي ما فَارقتُ خطواتِها، تلتمسُ الراحةَ بكنفي وألتمسُ الحياةَ بهمسِها، هيا اخرجوا وافسحوا لها ركنَها المفضل، لا تثقلوني بشكواكم... مالكم عندي غير أذنٍ تصغي...»

دَخَلت على استحياءٍ لحِمى المقامِ تجرجرُ ساقيها نحو الضريح:

- يا ألله... المقامُ الليلةُ مزدحم، كيف لي أن أنفردَ وحدي بمناجاتِه... أحمدُك ربي ها هي فرجةٌ ضيقةٌ لكنها تكفيني.

سيدي يا صاحبَ المقامِ العالي... أكل الوجعُ قلبي، توقي له يفوقُ احتمالي، هو يا سيدي حيٌ أعرفُ ذلكَ جيدًا، لم يُذهبُ الحزنُ عقلي بعد إنما هو قلبي المقترنُ نبضُه بنبضِ من سُلبَ من حضني،



أرجعه لي سيدي... اسأل اللهَ أن يقربَ بيننا، ما عدتُ أشكو وجيعتي لغيرك، حتىٰ أباه وصمني بالجنون، ما عاد يريحنُي إلا أن أفضي إليك...

أسندت رأسَها المثقلَ للمقامِ وأغمضت عينيها، مد يديَه يريدُ احتضانها فما استطاعت أن تمسَها، أسند ظهرَه وطأطأ رأسَه أغمض عينيه عاجزًا عن مساعدتِها، يعرفُ مكانَ فقيدها، يراه، يهمس لها، يصرخ فيها، لكن صوته لا يصل إليها.





هكذا رأيته

قيظٌ شديدٌ تلاعبَ بألسنةِ اللهبِ المتصاعدةِ من الأسفلتِ مسببًا تشوشَ الصورِ أمام عيني، أقف مختنقةً بالهواءِ الساخنِ منتظرةً أي وسيلةِ نقلٍ تقلني من تلك البقعةِ التي هجرتها الرياحُ وعافها الظلُ، حتىٰ أفكاري التي عادةً ما تتدفق بلا توقفٍ تمنعت عليّ، غارقةٌ لأذني في مستنقعِ المللِ كنت وحدي...

أتاني صوتُه الرائعُ من حيثُ لا أحتسب، تنبهت حواسي وقد انتشلني تغريدُه فعادت الحياةُ تدب فيها، لحنٌ عذبٌ يجمعُ التناغمَ والصفاءَ المنكه بنغماتٍ منعشةٍ للروح، درت ببصري أبحث بلهفةٍ عن صاحب الصوت، أين تختبئ أيها البديع؟

علىٰ مسافةٍ غير قريبةٍ ولا بعيدةٍ ثلاث نخلاتٍ عجافٍ تجاورهن شجرةٌ ظليلة، بالتأكيد هو يسكنُها فتلك النخلاتُ لا تتناسب وصورتُه التي لم يبخلْ خيالي عليها من إفراطٍ في التزيين، أدقق البصرَ علّي ألمحُ منقارَه البرتقالي وريشَه اللامع الذي يجمع تدرجاتِ اللونين الأخضرِ والأزرقِ في تواؤمٍ رائع، يتدرج من الأخضرِ الفاتح عند الرأسِ والرقبة، ليزدادَ اللونُ عنفوانًا وهو يصارع الأزرقَ اللامعَ الغارقَ في السوادِ عند أطرافِ ذيلِه المشقوق المنتهي بريشتين طويلتين سوداوين...

هكذا رأيته، انتظرتُ بشغفٍ أغنيتَه التاليةَ لأستكشفَ مكانَه، لم يبخلْ عليَّ بلحنٍ مبهجٍ جديد، وعلىٰ حين غِرةٍ طارَ منطلقًا محلقًا في



الهواء، أعجزتني أشعةُ الشمسِ أن أراه بوضوحٍ فأغلقت عيني اتقاء وهجها، أتاني صوتُه من مسافةٍ قريبةٍ ففتحتُ عيني بشغفٍ أبحث عنه، انفجرتُ ضاحكةً بصوتٍ لم أتكلفْ عناءَ التحكم في نبرته، جفل العصفورُ البني الصغير وابتلع لحنه الشجيَ وطار مرتعبًا مبتعدًا عائدًا للشجرة.



حنين

يـوخز الشـوق قلبهـا بـلا رحمـة، فتتنهـد في لوعـة وتزفـر نفسـا حارقـا لـم تفلـح دمعتهـا في تقليـل حرارتـه، لا تسـتطع التوقـف عـن التفكيـر فيـه، تنـادي أنفاسـها باسـمه، تشـتاق لكـل تفصـيلة مـن تفاصـيل ملامحـه، صـوت ضـحكته، همسـه، لـذة احتوائـه لهـا عنـدما تضـمه، تـترك مـا في يـدها وتخـرج مسـرعة لتحـوم كعادتهـا حـول بيتـه، تحـاول أن تتـوارىٰ ولا يراهـا أحـد، تمشـط الشـوارع والأرصـفة المجـاورة لبيتـه بعينيهـا، تتسـارع دقـات قلبهـا عنـدما تـراه، تختنـق الكلمـات في حلقهـا وهـي تحـاول أن تناديـه، يلتفـت نحوهـا فجـأة، ينظـر لهـا بعينـين يملأهمـا الشـوق، يجـري مسـرعا نحوهـا وقـد جمـدتها الفرحـة في مكانهـا، يتعانقـان بلهفـة وشـوق ناسـيان العـالم مـن حولهمـا، تنهمـر الـدموع بـلا توقـف ويـرتعش صوتها قائلة:

- وحشتني.

يجيبها بكلمات دافئة مطمئنة:

- وأنتي كمان وحشتيني أوي يا ماما.



اشتباه

داعبت السماءُ الأرجوانيةُ بغيومِها الرماديةِ عينيه وهو يتأملُ ظلَ المسلةِ الفرعونيةِ الممتدَ أمامَ قرصِ الشمسِ الأحمر، تسللت ابتسامةٌ شحيحةٌ بين تقاسيم وجهِه الذي تلبدَ بعد أن غزته التجاعيدُ وغزا الحزنُ قلبَه المتعب، اعتدل في جلستِه علىٰ مقعدِه الخشبي وهو يتأملُ ميدانَ (كونكورد) بأبنيتِه الفاخرة، هدوءٌ عجيبٌ يعمُ المكانَ شبه الخالي، ذكرته أبنيتُه بأبنيةِ معشوقتِه (سان بطرسبيرغ)، أفلحت ذكرياتُه في استرجاعِ شيئًا من الطمأنينةِ لنفسِه وهو يتذكرُ بهاءَها وجمالَ شوارعِها، ووجهَ زوجتِه(صوفيا)المبتسمَ وهي متعلقةٌ بذراعِه مداعبةٌ إياه:

- حبيبي.. خذني لباريس.
- وهل باريس أجمل من مدينتنا؟!

فتزيد دلالها، وابتسامتُها الساحرةُ تتولىٰ تغييب عقله وهي تهمس:

- أريد أن أتمشىٰ معك علىٰ ضفةِ نهر السين، وأجلسُ معك علىٰ أحد مقاهي الشانزليزيه، ألتقط لك صورةً تبدو فيها مستندًا علىٰ المسلةِ الشهيرة، قبل أن يأتي رجل البانتومايمن الذي طلىٰ وجهَه بالأبيضِ راسمًا فمًا ضاحكًا وعينًا واحدةً باكية، ليشير لي بيدِه ويخرجُ وردةً حمراءَ من قبعتِه الصغيرة.
- ههه، خيالٌ خصبٌ عزيزتي.
- لا بل رأيته في أحد الأفلامِ وتمنيتُ أن أعيشَه معك ايفان...



ايفان... ايفان...

- مستر ايفان.

آفاقه النداءُ فالتفت للرجلِ الخمسيني ذي البشرةِ الخمريةِ الذي يجلسُ علىٰ مسافةٍ منه، رفيقه الوحيد في هذه الجلسة:

- اعذرني سنيور باولو لقد شردت قليلًا.

نطقها بلغةٍ غريبةٍ جمعت بين لغاتِ القارةِ العجوزِ ومزجتها في لغةٍ جديدةٍ اعتاد الناجون عليها، رد عليه رفيقه دون أن يرفع عينيه عن شاشةِ جواله بنفسِ اللغةِ مع إضافةِ نكهةٍ إيطاليةٍ مميزة:

- لا عليك يا صديقي، أرأيت عفاريتَ الانترنت! الأوغادُ ينشرون صورًا لتجمعاتِ البشرِ في دولِ إفريقيا واحتفالاتِهم بمرورِ عشر سنوات علىٰ انتهاءِ الجائحة، تبًا لهم.. يسيطرون علىٰ الأحداثِ وعرضِها.

ارتعش وتهدل جسمُه وهو يقهقه:

- كنا نسميهم المهوسين، أبناءُ المحظوظةِ حمتهم عزلتُهم الاجتماعيةُ من التقاطِ الوباء.

ارتعشت ملامحُه وبلع ريقَه في حسرة:

- ليتني ما نهرته، كنت دائمًا أقسو عليه وأطلقُ عليه (دراكولا) وأناديه بعدو الشمس، طالما طالبتُه النزولَ لممارسةِ الرياضةِ

والاختلاطِ بالناس، لم أكن أعرفُ أني أدفعُ وحيدي لملاقاةِ الشرِ الأعظم.

أراد ايفان أن يواسيه لكن ألَمَه لفقدِ زوجتِه هاجمه بضراوةٍ أكبر هذه المرةِ فلجم لسانَه ولم تظهرْ عليه سوىٰ ارتجافةٍ رجت جسدَه.

عاد باولو لقهقهتِه المفتعلةِ وهو يروي إحدىٰ الطرفاتِ التي رآها علىٰ موقعِ التواصل، مذ أبادت الجائحةُ الملايينَ في أوربا وفُتحت الحدودُ داخلِها، انتشرت الطرفاتُ حول اللغةِ الجديدةِ والهوياتِ المفقودة، رفع رأسَه ليرىٰ أثرَ الطرفةِ علىٰ صديقِه فانقطعت أنفاسُه واتسعت عيناه وهو يرىٰ انتفاضةَ جسده، نهض مفزوعًا وتراجع خطواتٍ للوراءِ وهو يناديه:

- مستر ايفان.. ماذا دهاك؟

قبل أن يجيبَه سقط أرضًا وقد انتابته نوبةٌ من التشنجاتِ العنيفة، رفع باولو الهاتفَ لأذنِه بعد أن طلبَ رقمًا محددًا، لم يحتمل الثواني حتىٰ يتم الرد عليه فأخذ يسبُ ويلعنُ حتىٰ أتاه الرد:

- أُبلغ عن مصابٍ بالوباءِ الجديد.

بعد أن أتىٰ الرجالُ في الحللِ البيضاءِ المحكمةِ لنقل ايفان طلبوا من باولو مرافقتَهم لأخذِ عينةً لَأنه كان آخرُ مرافقٍ له، كتب علىٰ مخبارِ التحليلِ الذي يحوي عينتَه:

(اشتباهُ وباءَ الفقد).



العاركه

- أنا زهقت.
- اصبر قربوا أكيد.

كلماتٌ مقتضبةٌ تبادلها مع رفيقهِ وهما منبطحان علىٰ بطنيهما خلف أحدِ الأحجارِ، مد يده لتفقدَ ذخيرتَه، عدها بأطرافِ أناملهِ منتهيًا بتحسسِ أكبرها الذي أشعره وجودُها بالطمأنينةِ، تلفحُه النسماتُ الساخنةُ التي لَم يستطع ميلُ الشمسِ جهةِ الغربِ في تخفيفِ حرارتِها، اختلطت قطراتُ العرقِ بدمعاتِ عينيه العسليتين وهو يتذكر مساءَ اليومِ السابقِ وهم يحملون رفيقَهم(دبور) وقدمَه التي أبت دائمًا الاستكانةَ داخل حذاءٍ تقطر دمًا، مسح وجهَه بساعده، شخُص بصره مع حبيباتِ الترابِ الناعمةِ التي تغطي الساحة.. تلك الساحةُ التي تحامل هو ورفاقُه علىٰ أجسادِهم الصغيرةِ النحيلةِ في تطهيرها، يومان ينظفونَها من القمامةِ ويزيلون ما بها من حجارةٍ حتىٰ غدت ملعبًا ممتازًا للعب الكرة؛ متعتهم الوحيدة.

خطيئته الكبرىٰ أنه أخبر أخيه الذي يكبره بتسعِ سنواتٍ عنها، فوجئ الصغارُ بالأخِ الأكبرِ وأصدقائه يقتحمون عليهم الساحة، أمام وابلِ السبابِ والدفعِ تراجعَ الصغار، كبل الخوفُ عزيمتَهم فتراجعوا مضطَرينَ تاركين الساحةَ للكبارِ الذين لم يكفهم دخولها عنوةً وإنما استأثروا لأنفسِهم بأفضلِ ساعتين من ساعاتِ اليومِ الصيفي، تلك التي تنحصر بين الخامسةِ حيث تبرد الشمسُ والسابعةِ قبل حلولِ

الظلام، رضخ الصغارُ خوفًا من بطشِ الكبارِ بهم، أما البارحةُ فضوءُ البدرِ الذي أنار السماءَ والأرضَ، أنار قلوبَ الصغارِ بالأملِ في اللعب، انتظروا انتهاءَ الكبارِ من اللعبِ ومغادرتِهم الساحةِ ولَكنهم أبوا المغادرة، أغراهم ضوءُ القمرِ الفضيُ علىٰ التسامرِ وتبادل السجائرِ وشربِ المرطبات، أنهوا ليلتَهم بتقاذفِ الزجاجاتِ الفارغةِ بينما ينتظر الصغارُ أن يملُّوا ويرحلوا، في لحظةِ يأسٍ قرر الصغارُ المغادرة، لملموا أذيالَ الخيبةِ وهمُوا بمغادرةِ الساحة، قطع صمتَهم صرخةُ دبور وقد دخلت أحدىٰ قطعِ الزجاجِ في قدمِهِ الصغيرِ الحافي، استنجدوا بالشبابِ ولكنهم زجروهم وهددوهم فحملوا الصغيرَ المصابَ لمنزلِه، حيث استقبلتهم والدتُه بالصراخِ وأقسمت ألا يعودَ ولدهُا للعبِ مرةً اخرىٰ، كانت هذه القشةُ كافيةً لينهار الخوف، اجتمع الصغارُ علىٰ قرارٍ واحد.. الأخذُ بالثأر.

أفاقته صافرةٌ مدوية، إنها الإشارةُ المرتقبة، أخرج نبلتَه وتناول أحدَ الأحجارِ وتهيأ لإطلاقِها..

لم يكن وحدَه من استعد، بل أخرج الجميعُ نبالَهم المصنَّع أغلبَها من الأربطةِ المطاطيةِ لملابسِهم، بدأتْ أصواتُ الكبارِ في الوضوح وهم يتضاحكون ويتبادلون السبابَ والشتائمَ كما يتبادل الأحبةُ عباراتِ التودد، ما إن خطت أقدامهُم أرضَ الملعبِ حتىٰ فوجئوا بأحجارٍ صغيرةٍ تمطرهم من كل صوب، ارتفعت الأذرعُ محاولةً حمايةَ وجوهم، امتلأت الأجسامُ الصغيرةُ بالحماسِ فانطلق الأطفالُ تاركين مواقعَهم متوجهين للساحةِ في مواجهةٍ تبدو للوهلةِ الأولىٰ غيرَ

متكافئة، انهال الصغارُ بجميعِ أسلحتَهم من حجارةٍ وعصي علىٰ ما استطاعوا الوصولَ له من أجسامِ المقتحمين، أما عسلي العينين فقد كان له هدفٌ واحد، رفع نبلتَه وصوبها بذلك الحجرِ الكبيرِ الذي احتفظ به خصيصًا نحو أخيه، بكل ما أوتي من قوةٍ جذبها وأطلقها، طار الحجرُ الكبيرُ في الهواءِ مندفعًا بسرعةٍ كبيرةٍ نحو هدفِه في إتقانٍ غريب، أصاب الحجرُ أنفَ الأخِ الأكبر، فسمع الأخيرُ له صوتَ تهشم، صرخ في ألمٍ شديدٍ والدماءُ الساخنةُ تغرق فمَه، ضغط أنفَه بيدِه وانحنىٰ ليلتقط الحجرَ ويعيد قذفه موجهًا إياه صوب الصغير، طار الحجرُ في طاعةٍ عمياءٍ صوبه دون تقصير ليصيبَه في شفتِه العلوية، تراجع الأخُ الأكبرُ ورفاقُه وهم يتوعدون الصغارَ ويهددونهم بالعودةِ مرةً أخرىٰ، لحظاتٌ والصغارُ المذهولون يتابعون الانسحابَ غير مصدقين، قبل أن يبدأوا في الرقصِ والتهليل، حاولوا حملَ عسلي العينين علىٰ أكتافهِم ولكن الحملَ ثقلَ عليهم فسقطَ الجميعُ أرضًا ضاحكين يتوسطهم الصغيرُ بابتسامةٍ ازدانت بحرجٍ في شفتِه وسنٍ مكسور.



شغف

جلستُ أمامَه في سكون، أتأملَه وهو ينظرُ لها بشغف، يقطرُ الولـهُ من عينيه وهو يتفحصُها... يتحسسُها بلهفة، يلفُها بين أناملِه في رقةٍ لـم تفلح في إخفاءِ رغبتِه الملحةِ فيها، غير عابئٍ بي متجاهلًا نيرانَ الغيـرةِ التي ألهبت أنفاسي، ليته ينظرُ لي كما ينظرُ لها، ذات مرةٍ وفي نوبةِ رضا دللني قائلًا بأنني أشبهها.

ابتسـمتُ وتلـك الكلمتـان تـداعبان خيـالي وأنـا أتابعُـه معهـا في واحـدةٍ مـن جلسـاتِ الغـزل، لـم أقـوَ يومًـا علـىٰ مواجهتِهـا، فهـو مزاجيٌّ وهـي مزاجُـه الأول، تـرىٰ هـل عناهـا حقـا؟ هـل أنـا لديـه في مكانتِهـا؟ تسـللت النشـوةُ لعروقـي وأنـا أراه يتنفسُـها بـنهم ويغمـضُ عينَيـه وهـو يـنفسُ دخانَهـا بتلـذذ، عجبتُ لأمـري! راضيـةً أن يعشـقنَي كمـا يعشـقُها، أن يتلـذذَ بـي كمـا تفعـلُ بـه، قبـل أن تصـلَ نوبـةُ نشـوتي لـذروتِها صـفعني وأفـاقني مذهولـةً وأنـا أتابعُـه وهـو يدعسُها بإصبعيه في مطفأةِ السجائر.



صرخة خرساء

أصوات وهمهمات غير مفهومة تسبق الجمع الذي تحسس خطواته بتردد، يتصدرهم ذلك الشاب الذي لم يرىٰ الشمس قبلا، يسبق والدته بخطوة بينما تضع يدها علىٰ كتفه لتحسه علىٰ المسير، خبأته من يوم ولادته حتىٰ لا يناله ما نالهم جميعا؛ لسان مقطوع لم يتعلم النطق.

اليوم يقفون جميعا أمام الجباه فارغي الأيدي، يتوسط البغاة رئيسهم بكرشه المتدلي، منتظرا ما يحملون من أقواتهم، تدفعه والدته إليهم «اليوم ستجدون من يقول لكم لا..

من يثأر لألسنتنا التي دفناها في قبور تنتظر أجسادنا بضجر.»

أشار كبيرهم له فاقترب، احتبست أنفاس الواقفين خلفه وتعلقت أعينهم به وهم ينتظرون خروجها من فهمه، حرك لسانه.. فلم ينطق سوىٰ بهمهمة وآهات غير مفهومة، التهمت الحسرة قلب والدته التي.. فقدت لسانها قبل أن تلده.





ماءٌ آسن

تلتهمُ حوافرُ الفرسِ الأرضَ في إصرارٍ طاعةً لرغبةِ فارسِها في اقتحامِ حجبِ الزمانِ والمكانِ، تكادُ حرارةُ جسمِها وهي تعتصرُ عضلاتِها المنهكةَ تلهبُ جلدهَا، يمدُ فارسُها يدَه ليرَبّت علىٰ رقبتِها ويحثها علىٰ الاستمرار، ينالُه الإرهاقُ فيستسلمُ لاهتزازِه فوق مطيتِه، يتباطأُ صوتُ حوافرِها وهي تنهشُ الأرضَ الترابيةَ الجافةَ ويخفتُ رويدًا رويدًا ليتثاقلا جفنا فارسِها ليجولَ منعدمَ الوزنِ بين مشاهدٍ وأصوات.

النهرُ العظيمُ يقلُ ماؤهُ، يغزو الجفافُ خضارًا كان يفرشُ الأفقَ، التربةُ البنيةُ الجافةُ بين أصابعِه، بهوُ قصرِ الوالي يختالُ كل ركنٍ فيه ببذخ ملفت، عمامةُ الوالي وحجرُ العقيقِ يعلوها في بهاء، تسلمُه وثلاثةٌ من أسرعِ الفرسانِ لفافةَ التكليفِ لتَتَبُّعِ مجرىٰ النهرِ للوقوفِ علي علتِه، تفاصيلُ رحلةٍ اكتمل البدرُ فيها ثلاثَ مراتٍ، وفاةُ أولِ رفاقِه بالحمىٰ، و...

أفاقته حمحمةُ الفرسِ ففتح عينيه، ابتلع ريقَه في صعوبةٍ لم يخففْ وطأتَها إلا ما يحملُ من خبر...

«أحمدُك اللهم يا مانحَ الحياة، كاد هلعي وأنا ممسكٌ بالطمي البني الجافِ أن يُحيلَ عقلي هباءً منثورًا مع حبيباتِه السابحةِ في الهواء، اهدأ يا قلبُ... فمن بذلوا أرواحهَم في هذه الرحلةِ سيباركون الأرضَ حين عودةِ المياهِ لتروي تشققاتِ المجرىٰ»

يلقي ببصرهِ للمجرىٰ الجاف، تتسللُ تشققاتُه لفؤادِه فيَجَبِّرُها بما وقرَ لديه، تلهبُ حماستُه مشاعرَه فيقبضُ اللجامَ بقوةٍ ليهبطَ بالفرسِ للمجرىٰ الجاف ليسري به متخيلًا الموجَ يلاحقه...

«لا أصدقُ ما أرىٰ، ثلاثةَ أشهرٍ تآكَل فيها كل الزرع!

وأين أهلُ مدينتي؟ هل تبع الناسُ زروعَهم؟

يا الله هل تأخرتُ لهذه الدرجة!»

يتابعُ البيوتَ المقفرةَ والطرقاتِ الخاويةَ، يتصارعُ القلقُ والأملُ بلبِه، تتنامىٰ لمسامعِه أصواتُ الناسِ فيدفعُ الأملُ قلقَه جانبًا، يقتربُ من قصرِ الوالي يهتفُ بفرسه:

- كدنا نصلُ تجلدي أعلمُ أنكِ عانيتِ أكثرَ مما ينبغي.

«ما هذا الزحام؟ وكأن الخلقَ جميعًا تكدسوا بقربِ القصر» تتمهلُ الفرسُ رغمًا عن فارسِها، وتخترقُ الجمعَ العجيبَ في تؤدةٍ يُسائلُ نفسه...

« نعم هي وجوهٌ أعرفُها لكنها تبدلت بشكلٍ ما، تشابهت كلُ العيونِ بشكلٍ مفجع تعلوها نظراتُ الذلة، أليسَ هذا جاري أبو حسان؟ أيهيأ لِي أم أنَ هامتَه انحنت؟ ليس وحده...

ماذا دهاكم جميعًا؟ لماذا تمشون مكبين علىٰ وجوهِكم؟ رحماك ربي مالهم يسيرون كموتىٰ متوافدين للحساب!»

يرىٰ أسوارَ القصرِ من بعيد، لا زالت أفرعُ (ست الحسنِ) المزهرةُ تغطيها، تعجب وقد سلبَ خضارُها عقلَه بعد أيامٍ قطع فيها

الأراضـي المقفـرة، ازداد الزحـامُ فترجـلَ عـن الفـرسِ ليسـيرَ وسـطَ الجموعِ المستقبلةِ أبوابِ القصر، يحملُ الجميعُ جرارًا صغيرةً جدًا بأيديِهم، سار مذهولًا حتىٰ بلغ البابَ ليسمعَ أصواتَ الحراس:

- لا تتزاحموا؛ ماء العين يكفي الجميع.

استجابوا للتعليمـاتِ في خنـوعٍ عجيـب، اخـترق البـاب، وقـف مـذهولًا، أشـجارٌ وارفـةٌ تتثاقـلُ أغصـانُها بمـا تحمـل، الجيـاعُ يغضـونَ البصـرَ عنهـا في مشـهدٍ لا يستوعبُه عقلُـه، الجميعُ يتحركـون فىٰ صـفٍ طويلٍ تحوطَه الزهورُ من الجانبين..

«ماذا دهاكُم يا بشر؟ أأموات في ثيابِ أحياء؟»

يخطفُ بصرَه بريقٌ أحمرٌ فيمدُه ليراه، الوالي متربعًـا عرشًـا ظليلًا وسط حاشيتِه، يجاورُه وزيرُه بآنيةٍ ذهبيةٍ ضخمةٍ مملوءةٍ بالمـاء، يمدُ الناسُ أيديَهم بجرارِهم الصغيرةِ فيملأ قدحَه الذهبيَ بالماءِ ويفرغُـه في الجـرارِ، لتتعـالىٰ ألسـنتُهم بالـدعاءِ لـه بـدوامِ الملـك، تسـللَ الغضـبُ لنفسِه فما يحملُ من أخبارٍ كفيلةٍ بعودةِ الماء، اقترب من أحدِ الحراسِ وأخرج لفافةَ التكليف، أخبره أنّ لديه نبأً هامً للـوالي.. يبقيـه الحـارسُ مكانَه ويـذهبُ للـوزيرِ لـيهمسَ لـه بمـا كـان، يـترك الـوزيرُ مكانَـه علىٰ عجلٍ ويذهبُ إليه.

- سيدي منذ ثلاثةِ أشهرٍ كلفتُ وثلاثةٌ من رفقائي باقتفاءِ مجرىٰ النهرِ لمنابعِه، لقينا من سفرنِا نصبًا شـديدًا حتـىٰ بلغنـا جبالًا تحاوطُ النهرَ من الجانبينِ لنرىٰ أحجارَ أحدهِم وقـد انهـارت فسدت المجرىٰ، سيدي ما ماتَ رفقائي هباءً، إن بعثَ الوالي



من الرجالِ أشدهُم معي، وجهزنا بما يلزم لأزلناها جميعًا، بشر الناسَ سيدي الوزير..

أشارَ له الوزيرُ بالصمتِ وتوجه للوالي مال عليه هامسًا، تغيرت ملامحُه، صمت للحظاتٍ ثم مال علىٰ وزيرهِ ناطقًا بكلمةٍ واحدةٍ قبل أن تعودَ ابتسامتُه الصفراءُ لتزينَ وجهَه وهو يتابعُ صبَ الماء، أشار الوزيرُ للفارسِ فوافاهُ بعيدًا عن الصفوفِ متهللًا مستبشرًا بابتسامته، اقترب منه.. اتسعت عينا الفارسِ ولم تقو آهتُه علىٰ تجاوزِ شفتَيه وهو يتحسسُ السائلَ اللزجَ الدافئَ والوزيرُ يسحبُ خنجرَه من كبدهِ في هدوء.

• • ✿ • •



اللعبة

اخـترقَ البـابَ قبـل أن يغلـقَ بأقـلِ مـن الثانيـة، حشـر نفسَـه وسـطَ الركـاب، مشـط عربـةَ القطـارِ سـرِيعًا بحثًـا عـن بقعـةٍ يجلـسُ فيهـا حتـىٰ وجـدَ مكـانً صـغيرً بجـوارِ البـابِ المقابـل، ألقـىٰ حقيبتَـه في المكـانِ وجلـس عليهـا، أخـرجَ هاتفَـه بلهفـةٍ واتصـل بالإنترنـت، فـتح لعبتَـه القتاليـةَ المفضـلةَ التـي ذاع انتشـارها بشـكلٍ مفجـعٍ بـين مـن هـم في سنِه، حـك ذقنَـه في حمـاسٍ متحسسًـا شـعيراتٍ بسـيطةً نابتـةً تزعجُـه لعـدمِ اعتيـادِه علـىٰ حلاقتِهـا بعـد، مـرت الثـواني ثقيلـةً حتىٰ بدأت اللعبة.

وضع سماعاتِ الأذن، وبدأ جولـةً جديـدة، فقـد الإحسـاسَ بمـن حولِه واندمجَ في اللعبة، انعزل تمامًا عما حولِه وعلا صوتُه وهو يلعبُ منفعلًا، لفتت صيحاتُه المنتصرةُ وهـو يصيبُ منافسيه انتباه الركـابِ الآخرين الذين اكتفوا بمتابعتِه بتعجبٍ أو سخرية، وسط انفعالِه أصابَه أحـدُ اللاعبـين برصاصـةٍ قاتلـة، لـم يشـعر بنفسِـه وهـو يسـبُ بصـوتٍ مرتفع، لكزه رجلٌ يقف بجوارِه فنظر له مستغربا غير واعٍ للسبب، انتبه لنظراتِ الركابِ وتعليقاتِهم المستاءة، شعر بالحرجِ فمدً يده في جيبِه ليلتقطَ منديلّا يمسحُ به قطراتِ عرقٍ وهميةٍ علىٰ جبينِه، خرجـت يـدُه بورقةٍ مطويةٍ عليها شعارِ المدرسةِ التي تستدعي ولـيَ أمـرِه لمناقشـتِه حـول تـأخرِ مستواهُ الدراسـي، أطبـق يـدَه علـىٰ الورقـةِ بقـوةٍ ورماهـا باستهتارٍ أسفل مقاعـدِ الركـاب، وضـع السـماعةَ مـرةً أخـرىٰ في أذنيـهِ وأكملَ اللعبَ متعمـدًا رفـع صـوتَه أثنـاء لعبـهِ المحاولـةَ التاليـةَ متلفظًـا



بأقبح الألفاظ، امتعضت إحدىٰ الراكباتِ وهي تقفُ بصعوبةٍ حاملةً طفلًا في الثالثةِ ينظرُ له باهتمام، حدثت صغيرهَا محاولةً صرفَ انتباهَه عنه، نظر لها في استخفافٍ ضاحكًا وهو يودعُ جسدَ خصمِه عددًا لم يحسبْه من الرصاصات.





أوراقُ الزيتون

بخطواتٍ رشيقةٍ سار متجاوزًا عثراتِ الطريقِ الوعر، لم يزعجه شيءٌ قط سوىٰ ذاك الصوت، لم تفلح طلتُه المميزةُ وبريقُ عينيه الأخاذُ في إسكاتِه، حاول الترفعَ عن هذا الشعورِ البغيضِ، ذلك الألمُ الذي يعتصرُ أعلىٰ صدرِه ينازعُ دقاتِ قلبِه ليفتكَ بها علىٰ مهل، مخلفًا خواءً شرهًا يلتهم روحَه، هو الجوعُ لاشك، انتقىٰ موضعًا وجلس فيه، أخرج ما لديه من طعامٍ فلم تفلح اللقيماتُ في إرضائِه، قام متغاضيًا زاهدًا فيما يحمل، إذ كيف لهذا الطعامِ البسيطِ أن يسد جوعَه الهائل! ما عاد الطعامُ يشبعه.

بجانبِ سورِ جنةٍ وارفةٍ سار، تتمايلُ أشجارُها وقد ثقلت أغصانُها بأنواعٍ شتىٰ من الفاكهة، تسللت رائحتُها بخفةٍ إليه، أصابت مواضعَ شهوتِه فرفع رأسَه إليها، تتدلىٰ بدلالٍ وسط الأغصان، كياقوتةٍ حمراءٍ بضةٍ تتخفىٰ بين أوراقِ الشجر، لمعت عيناهُ وهو يتطلعُ إليها، لم يشتهِ تفاحةً قط كما اشتهاها، هفا لها خواؤه -إنها هي، هي كفيلةٌ بإشباعِك، بملء ذلك الفراغِ الذي لم يفلح طعامٌ قبلها في احتوائِه- نظر للسورِ العالي الذي يفصلهما، من بناه زاده في الطولِ ليحصنَها وما جاورها من قطوف، لم يفلح علو السورِ في اثنائِه عنها، هو يريدُها، يعلم أنها ليست له ولكن توقَه أكبرُ من خوفِه من صاحبِها، تسلق السورَ واقتطفها، هبط ممسكًا بها بشدة، تطلع لها منبهرًا، لونُها ورائحتُها استحوذا عليه، همَّ بقضمِها ولكنه تراجع، إذ كيف لأسنانِه أن تدنسَ هذا الجمال! تزينت له بحمرتِها وهمست الرائحةُ.. تذوقني، قضمها

ليسيلَ عصيرُها عسلًا سائغا، تدنيه روعةُ المذاقُ من الإشباع، تهبطُ القطعةُ الصغيرةُ ببطءٍ لتغمر خواءه خضارًا يانعا، وتشعل جذوةً قاربت الفتور، تملكه العجبُ، أيمكنُ لقضمةٍ صغيرةٍ أن تمنحه هذا الرضا!

قَلّبها بين أصابعهِ بحرصٍ ثم دسها في حقيبتِه ليخبئها عن العيون، سار منتشيًا مترقبًا مكانًا يليقُ بأن يستمتعَ بها لآخرها، مأخوذًا بسحرِها أكمل الطريقَ دون وعيٍ حتىٰ أتىٰ ضفةَ نهر، تتسابقُ أمواجُه بين صخورهِ وتعرجاتِ مجراه، عبورُه لا مفرَ منه، حسم الأمرَ ونزل الماء، انزلقت قدمهُ، مثقلًا بحملِه غاص جسدُه ليهوي في لجةٍ بلا قاع، قاوم بكل ما أوتي من قوةٍ بلا فائدة، ما بين الفقاقيع والأعشابِ رأىٰ وجهَ أبيه ويدَه الممدودةَ له، تشبث بها فرفعته بخفةٍ لتُخرج رأسَه من الماء..

- أبي..

لبد الغضبُ وجهَ أبيه فأشاحه عنه..

- أبي إني التجئ إليك، فاعصمني.
- يحولُ بيننا ما تحمل.

خلع حقيبتَه وألقاها بجوفِ الماء.

- ها أنا ألقيتها الحقني بمن معك.
- لا زال جوفُك يحوي معصيتَك يا ولدي.
- مُد إليَّ عصاكَ تشق الماءَ عن صدري وتخرج خطيئتي.
- أمرُك بيدِك يا ولدي، لن يطهرَك سوىٰ نفسِك.



انزلقت يده ليتخبط مذعورًا بين عبابِ الموج، ينجذبُ للقاعِ بسرعةٍ، ووجهُ أبيه يغيبُ عنه، غرس أصابعَه ليشق صدرَه فتخرج القضمةُ، لتسقط كحجرٍ أسودٍ للقاعِ بينما يمتلئ صدرُه نورًا يرفعه بخفةٍ للسطح، طفا جسدُه المرتخي المغسلُ بالماء، سحبه والدُه ودمعاتُ عينه البيضاءِ تبللُ لحيتَه، خلع ردائَه وألقاه عليه، ارتد الهواءُ لرئتيهِ، ارتمىٰ بحضنِ أبيه متدثرًا بأوراقِ الزيتون.

● ● ✿ ● ●



سور

فاجأته حرارة الشمس اليوم، أحس بالضيق وهو يتذكر أنها البداية، أسرع الخطىٰ في طريقه اليومي الذي يمشيه وصولًا لحافلة الشركة حتىٰ يوفر بعض المال، عبر الطريق علىٰ عجل واصلًا(للسور)، يسير بجواره يوميا حتىٰ نهايته التي يباعدها ضجره، مع أول خطواته علىٰ الرصيف فاجأه انفصال نعل حذائه، التقطه في حنق ومط شفتيه في استياء:

«أهو دا اللي كان ناقصني» رددها مؤنبا حظه الذي اعتاده، داهمته الشمس بحرارتها الزائدة فالتصق بالسور مستند عليه متطلعًا لحذائه البالي «إنه بارد»، انتعله علىٰ علته وتحسس برودة السور وهو يسير، رفع بصره ليري شجيرات الياسمين المتسلقة من الداخل لتعبره حاملة معها زهراته وعبيرها الآخاذ، استنشقها في راحة..

تمهلت خطواته وهو يستمع للزقزقات المشاكسة خياله، قاطعتها صوت ضحكة اخترقت أضلعه ووصلت فورها لبراح خياله، أنصت جيدا عله يسمع صوت صاحبتها، لم يجد إلا زقزقات العصافير، اخترق خياله السور ليعبر لجنة صغيرة يخفيها عن العيون، ما بين شجيرات الياسمين ومجموعات الورود الرائعة، تجلس صاحبة الضحكة في دلال، يغطيها شعرها الأسود الطويل المنسدل، استلقت علىٰ حافة بركة ماء زينت حوافها بأحجار ملونة، واضعة قدميها الصغيرتين في مائها، حيث تداعب الأسماك الملونة أطراف أصابعها.



منتشيًا بما تلاعب بعقله من أخيلة؛ وقف مكانه ناظرًا للسور وقد استحوذت عليه فكرة تسلقه، لآن جلد حذائه واستطال وتبدلت ملابسه لسروال فضفاض حريري أبيض وقميص مزركش بلا أكمام يغطي صدره العاري، يسمع أميرته تناديه، يحزم أمره ويقرر تسلق السور باحثًا عن تلك الجنة، رفع رأسه لأعلاه ملبيا ندائها، أتاه شيء صغير محلقًا عبر السور، اختفت ابتسامته مع ارتطام الهدية بعنف بجبينه، وقف لحظات متجمدًا، قبل أن ينحنىٰ ويلتقط الحجر المدبب، نظر بحنق للسور وقطرة دم تسيل علىٰ جبينه، مسحها بكم قميصه وعدل من وضع حذائه المقطوع، وأكمل طريقه للحافلة.

• • ✿ • •



بذورٌ شيطانية

تزيدُ أضواءُ المشاعلِ المقتحمةُ (الخُصَ) من فزعِها، تعجزُ الفجواتُ المتراصةُ بين أعَوادِه المتباعدةِ عن حمايتِها حتىٰ من نظراتهم الغاضبة، تأتيها آلامُ المخاضِ فتحبسُ أنفاسَها وتمسك ببطنِها المكوَّر، تصارعُ انقباضَ رحمِها الذي يصرُ أن الوقت قد حان، تزدادُ رعبًا من تجمهرِ الغاضبينَ حول بيتِها الواهن، تكتمُ آهاتِها وهي تشعرُ بثقلِ رأسِ الطفلِ تضغطُ عظامَها، يتوقفُ الانقباضُ فتشهقُ محاولةً ملءَ صدرهَا بالهواء، أصواتُهم الغاضبةُ وهم يسبونَها وجنينَها تزيدُ من ارتجافِ أوصالِها، قاطعهم صوتٌ غاضبٌ:

- تلك الفاجرةُ لم تجلبْ لنا إلا الخراب؛ هي وجنينُها الشيطاني ملعونان، مذ وطأت أرضنَا سكن الشرُ ديارنَا، ومذ نمت البذرةُ المشؤومةُ في احشائِها وغضبُ اللهِ ملاحقُنا.

تعالت أصواتٌ مؤيدةٌ تُعيدُ سرد أحداثٍ وقائعَ تؤكدُ لعنَهم مع نموِ الجنين، عاد صاحبُ الصوتِ بنبرةٍ أكثرَ غضبًا:

- تلك البذرةُ الفاسدةُ صبت غضبَ اللهِ علينا، صبرنا علىٰ موتِ البهائم والريحِ السوداءِ وجفافِ البئر، أما أن تمتدَ لعنتُهما لغرسِ الشكِ بيننا وبين نسائِنا فهذا ما لا طاقة لنا به.

تعالت أصواتُ النساءِ هذه المرةُ بأسئلةٍ أعيتهن شهورًا، تحاملت علىٰ نفسِها واقتربت لتنظرَ لهم عبر فتحةٍ صغيرة، لم تدرِ أنيرانُ المشاعلِ أشدُ حرارةٍ أم أجسادُهم الغاضبة؟

غطّىٰ الجميعُ وجوهَهم، فلم يبدُ من الرجالِ الملثمينَ بجلابيبِهم البيضاءِ وسراويلِهم القصيرةِ سوىٰ عيونٍ تشع بغضًا، هتف أحدهم:

- ما لأرضِنا الطاهرةِ التي لم ندنّسها قط -نحن رجالُ اللهِ وخلفاؤه فيها- بتلك الساقطةِ ونفخةِ الشيطانِ في بطنِها.

أيّده الجميعُ وقد اتفقوا علىٰ حتميةِ قتلِها وجنينِها قبل أن يتنفسَ هواءَهم المقدس، عاودها الألمُ أكثر شدةً مع اندفاعِ الدماءِ لتغمرَ رجليها، تقبض ملابسَها وتضع قطعةَ قماشٍ بين أسنانِها، تعض عليها وجسدُها يرتعدُ ورأسُ وليدِها تضغطُ بشدةٍ، قبل أن تنتهي الانقباضةُ ألقىٰ الحشدُ الغاضبُ بمشاعلِهم علىٰ خُصها، التهمت النيرانُ أعوادَ البوصِ الهشةِ في سرعةٍ، خرجت صارخةً ممسكةَ ببطنِها، صمت الجميعُ فجأةً وهي تواجهُهم... صرخت عليها إحداهن:

- علَّ النارَ تطهرُك يا من تحملُ من لا أبًا له.

خرجت حروفٌ متحشرجةٌ من بين شفتَيّها:

- اتقوا الله.

عادت الغاضبةُ للسؤال:

- من أبوه؟

قبل أن تهم بالنطق سارع الرجالُ برجمِها بالحجارةِ فصرخت وهي تسقطُ أرضًا، تشاهد نظراتِهم الفزعة، لم تجب السؤال، قبل أن تستلمَ لإغماء طويلةٍ...

تطلعت لعيونِهم في حيرةٍ وهي تنكأ روحَها بالسؤال ذاته.



مسافات

وقفتْ أمامَ المرآةِ تتفحصُ نفسَها باهتمامٍ «اليومُ سأصارحُه»

أصابتَها قشعريرةٌ وهي تتخيلُ لحظةَ الوصل، فهي تراقبُ عينيَه دائمًا ولا تجرؤ علىٰ مبادلتهاِ النظرات، أضافت لمسةً خفيفةً من ملمعِ الشفاه وغضت بصرهَا خجلًا حين تراءت لها شفتَيه المبتسمتين في المرآة..

لـم تشـعر بـالطريقِ وهـي تتخيـلُ أيـن سـتقفُ وكيـف سـتبدأُ الكـلام، دخلـتْ المكتـب، تبادلـت التحيـةَ مـع زملاِئهـا، تطلعـت لمكانِـه الفـارغ، شـعرت بارتيـاحٍ للحظـةٍ ثـم عـاد الحمـاسُ يملؤهـا «سأصارحه»

تظاهرت بالانشغالِ، أخذت تقلبُ الأوراقَ لتخفي قلقَها، تنظرُ للساعةِ وتتساءل «لماذا تأخر؟» ربما لن يأتي، تفيقُها ضحكاتُ الزملاءِ فتتظـاهرُ بالضـحكِ دون أن تـدري السـبب، يسـتحوذُ عليهـا إحسـاسُ بالقلق، يضيقُ صدرهُا بفراغِ مكتبه، تنهضُ في حركةٍ مفاجئةٍ تلفتُ لها الأنظـارَ فترتجـفُ وقـد شـعرت بـالعيونِ تراقـبُ الشـوقَ الهـائجَ في صـدرِها، ترفـع ذراعيهـا، تحتضـنُ نفسَـها لتخبـئ لهفتَهـا وانفعالَهـا، تتحركُ مغادرةً مكتبَها متحججة بإحضارِ البريد.

مـع أولِ خطواتِهـا رأتـه هنـاك قادمًـا، تجمـدت للحظـة، بـدأت التحركَ بإرادةٍ مسلوبةٍ تجاهه، تطفو خطواتُها فوق الأرضِ كشخصية بأحد المشاهدِ السينمائيةِ البطيئة، تتلاشىٰ الأصـواتُ مـن حولِهـا فـلا



تسمعُ سوىٰ صوتِ نبضاتِها المتسارعة، تسبقه رائحةُ عطرِه، تستنشقُها كأنها آخر أنفاسِها، تحبسها علىٰ بعدِ خطوتين منه... تتباطأ نبضاتُها، يتلاشىٰ الكونُ من حولِها، تغوص قدماها في الأرضِ علىٰ بعدِ خطوةٍ منه...

تكاد تشعرُ بحرارةِ جسدِه تلفحُها، تُظلمُ الدنيا كلما طرفَ بعينيه، تتمنىٰ ألا يغلقهما أبدًا فلا سكن لها في غيرِهما، تفقدُ الإحساسَ بأوصالِها وكتفُه يكاد يلامُسها، يحييها بابتسامتهٍ الرائعة، تتابع حركةَ شفتيه باشتهاءٍ حين ينطقُ اسمها، يتجاوزها، يضيعُ منها الكلامُ، تلتقط أنفاسَها بصعوبةٍ، يغادرهُا جزءٌ من روحِها زاحفًا وراء ظلِه.



وسادة مطرزة بأحلام ذابلة

مفترشةً ركنا قصيا من صحن الدار، تتأمل بعينين دامعتين الفرن الطيني في مواجهتها، ثبتت بصرها على الوسادة المتيبسة التي تعلوه « إنها أنتِ بلا شك» تحاملت ونهضت لتحضرها، انحنت فوقها، بللتها دموعها وهي تطعنها بأصابعها في غضب، استلمت طرف الخيط وبدأت تفكيكها، تسحب الخيوط المهترئة كذكرياتها، شخص بصرها ليملأ فراغ الغرفة بصور وأصوات من زمن اعتادت فيه الفرحة تزيين ملامحه...

اعتيادها جمع عيدان الحطب لتشعل ذاك الفرن شتاءً وتلقى كيزان الذرة فيه، لتتصاعد أصوات الطقطقات ورائحة الشواء حاملين السعادة والطمأنينة لقلوب صغارها.. والشبع لبطونهم الصغيرة.

ابتسمت في أسى وهي تتذكرهم وهم يلعبون بالعيدان الفارغة بعد تناول الحب مستخدمينها كسيوف تارة ومحاقن أطباء تارة أخرى، فتفرش لهم سطح الفرن ببساط حشوه حبًا، ليناموا مستدفئين غارقين في عالم مزركش بأحلامهم الصغيرة السعيدة التي تتربع وسادتهم في طمأنينة «أماه... نريد حلوى»

أفرغت جوف وسادتهم من قطن تلبد منذ زمن، ضاق صدرها فنحته بعيدا عل ضيقها يرافقه، تشاغلت عنها بطي الملابس، تفرد القطع المتهالكة بكلتا يديها وهي تبتسم نصف ابتسامة كسيرة، منذ

زمن لم يلبس أي منهم جلبابا جديد، ترفع بصرها لسطح الفرن الذي ما عاد يكفيهم وهم ثلاثة رجال، ما عاد الفرش يريحهم، وما عادت كيزان الذرة تشبع نهمهم...

حتىٰ أحلامهم ذبلت.

انسابت الدمعات السخينة تنحت وجنتيها، ويأكل العجز فؤادها، ندبت عجزها وقلة حيلتها، كانت سعادتها وهي تراهم يكبرون تعميها عن تضاؤل سعادتهم يومًا بعد يوم، بنت آمالًا روتها بالصبر، ماتت علىٰ أعتاب خوضهم معترك الحياة، أمسكت جلباب أكبرهم وكلماته تتردد بعقلها:

- أمي أحب... ليتني أملك ثمن خاتم ذهبي لأهديه لها.

تنهدت في حرقة وهي تطويها وتضعها جانبا، تسند رأسها علىٰ الحائط وهي تنظر لرسم طفولي تكاد ألوانه أن تمحىٰ، تسللت الابتسامة رغما عنها لشفتيها وهي تتذكر صغيرها يرسم بيتا وشجرة وبرج حمام «أمي سأبني لك بيتا كبيرا، وأشتري لك أرضا أزرعها فاكهة لتأكلي منها»

لعنت الأيام التي لم تفلح إلا في طمس ابتساماتهم وهدم جدران أحلامهم التي بنوها علىٰ وسادتهم، توقها لمن هجر بحثا عن لقمة العيش يزيد كربها، نهضت مترنحة بين حزن ويأس، حائرة في لجة الذنب الذي كاد أن يعتصر قلبها بلا رحمة، انكبت علىٰ القطن تنثره وتنتف أجزاءً من روحها معه، قبل أن تعيده للكيس القماشي... عل أحلامًا سعيدة تتوسدها مرة أخرىٰ.



مشاهد من ذاكرة سوداء

ملقاة علي السرير كجثة هامدة لا تقوىٰ علىٰ الحراك، لا يظهر من صور الحياة عليها سوىٰ دمعات تنساب علىٰ وجنتيها في هدوء، تسمع خطوات تقترب من الباب، تتكوم كجنين محتضنة ركبتيها وساقيها تغمض عينيها متظاهرةً بالنوم، يفتح الباب، يقف عنده يتفحصها ببصره، يقترب منها ويجلس علىٰ حافة السرير، ترتجف عندما تشعر بيده تتحسسها، يقترب منها ليحتضنها، تشعر بالاشمئزاز من ساعديه كثيفي الشعر، تبعد يده عنها وتهرب من عينيه الشرهتين، تنتابها نوبة شديدة من الهياج والصراخ تجفله فينهض مبتعدًا، لا تهدأ إلا بدخول والدتها فزعة تحتضنها في جزع محاولةً تهدئتها متبادلة نظرات حائرة معه، يخرج مسرعًا بينما تطمئنها قائلة: سنجد من يساعدنا.

في الطريق تمسك بملابس والدتها تتوارىٰ في حضنها عن العيون المترصدة، تكاد قواها تخور وهي تصعد درجات السلم، لا تعي شيئًا مما يدور حولها، تدخلها والدتها لحجرة الكشف بعد أن سرىٰ مفعول المهديء في دمها واستكانت، يشير الطبيب للأم بالخروج.

لا أدري ماذا دهاني، لا أستطيع منع نفسي من الإجابة عن أسئلته، لماذا يصر علىٰ السؤال عما هو واضح؟ يسألني عن اسمي فأجيب، يسألني عن عمري فأتعجب، ألا تدل ضفائري وفستاني الطفولي عن عمري!

- أتعرفين لماذا أنت هنا؟

- أمي أخبرتني أنك ستساعدني، هل هذا صحيح؟

- بالتأكيد إذا سمحتِ لي.

صفي فستانك..

- إنه فستاني الوردي، أعلم أنه متسخ قليلًا لكني لا أستطيع خلعه عني.

- لماذا؟

- لا أعلم، حاولت كثيرًا ولكنه صار كجلدي لا أستطيع خلعه.

- هل تحبينه لهذه الدرجة؟

- لا لا، أنا أبغضه كثيرًا لكني لا أستطيع خلعه عني، ولا تستطيع والدتي إصلاح هذا التمزق الكبير فيه.

- أين هذا التمزق؟

- ألا تراه! يكاد الكم الأيسر ينفصل عنه!

- ما الذي مزقه؟

لماذا يسأل هذا السؤال، لا أتذكر ما أو من مزقه، لكني أشعر باضطراب شديد يجتاحني، نبضاتي تعلو تدفع الدم لأذني كصوت ضحكة بشعة أعرفها.

- ألا تحبين زوجك؟

- زوجي؟!

- نعم، من كان معك بالحجرة.

- إنه ليس زوجي، إنه زوجها..

ذلك البغيض الذي ينام مكان والدي علىٰ السرير.

- يكفي هذا اليوم.

يجلس أمام الطبيب ساهمًا حزينًا، يسأله عنها كيف التقيا؟ ويطلب منه أن يصف علاقتهما.

- التقينا منذ أكثر من ثلاث سنوات، كانت دائمًا هادئة ودودة، أحببت فيها رزانتها وتلك النظرة الحزينة التي أشعرتني بالمسئولية نحوها، تقربت منها، كان كل منا مصدر سعادة للأخر، لم أشعر يومًا بأن هناك ما يعكر صفو ما نتبادله من مشاعر صافية، تقدمت لخطبتها ووافقت من فورها، أعددنا بيتنا سويًا، كانت سعادتنا تكبر كلما اقترب زفافنا، حتىٰ أتت تلك الليلة المشئومة التي كانت نهاية لما تمنيته بداية لحياة جديدة.

- صف لي ما حدث.

- ما أن أُغلق علينا بابٌ حتىٰ تحول حلم اللقاء لكابوس مفزع، بدأت ترتعد وتهزي، حاولت ضمها وطمأنتها، فانتابتها نوبة من الصراخ الهستيري ولم تهدأ إلا بعد حضور والدتها، لولا ثقتي المطلقة فيها لظننت بها سوءً.



جلست باكية تحكي عن ابنتها بقهر، تركها الطبيب تحكي وتتكلم وهو يستمع في صمت، سألها:

-هل كان لابنتك فستان وردي؟

تعجبت الأم من السؤال.

- نعم، وهي في عمر العاشرة.

- ما الذي مزقه؟

- تمزق منها وهي تلهو في حجرتها.

- هل كانت بمفردها؟

- نعم.

- هل تتذكرين ذلك اليوم؟

- نعم عدت من الخارج فوجدتها تبكي بشدة ولم تجب أي سؤال وإنما اكتفت بأن تشير لتمزق في الفستان، خلعته ولم ترتده مجددًا.

تتداعىٰ الصور أمامها، تتسع حدقتاها في لحظة استبصار مؤلمة وتنظر للطبيب في ذهول.



بلا عودة

اخترقتَ السيارةُ السوداءُ الفارهةُ الطريقَ القاحلَ في سرعةٍ أنجت اطاراتِها من التهامِ الاسفلتِ الملتهبِ لها، بينما كنت أقودها في صمتٍ لا يقطعه سوىٰ همهمات أفكاري، ورجلٌ نُحتت ملامحُه علىٰ لوحٍ مشتعل ظهر فجأةً كعادته، جالسًا في المقعد الأمامي المجاورِ لمقعدي، باغتني قائلًا وعيناه تلمع محتجزةً دمعةً ترفض الاستكانة :

- معقولة نعمل كده؟!

ألمحه بطرف عيني، وأبتسم باستهزاء دون أن أنطق بحرفٍ واحد، لم يفلح وجهي الثلجي في إخفاء ابتسامتي، ينظر إليّ بغضبٍ مستجمعًا عزيمته:

- مش قادر افهمك، ازاي قدرت تعمل كده وتقعد هادي ولا كأنك عملت حاجة؟ دا أنت ما اتهزتلكش شعرة.

أشرت له أن يخفض صوته، وأنا أشير لها، نظر لها بأسىٰ في المرآة وهي تسند رأسها في استكانة، غارقةً في سباتٍ عميق، خالط حزنه غضب مكبوت وهو يتطلع إليّ متعجبًا من ذلك الثبات الانفعالي الذي اتمتع به، تطلع لرمال الصحراء اللا متناهية أمامه متمتمًا:

- كان ممكن تلاقي حل تاني.

اجبته باستنكار دون أن ارفع عيني عن الطريق:

- غريبة أنك أنت اللي تقول كده، محتاج أفكرك قد إيه كانت بتستهزأ بيك وكانت عاملاك أضحوكتها؟ ياما قالت لي (عمرك ما هتتقدم طول ما هو ملازمك).

حاول أن يجد بديلاً فحاصرته انكساراته المتتالية أمامها، قطعت عليه بتبلد مشاعري خط الرجعة:

- هي اللي دفعتنا لكده، إحنا كنا بالنسبة لها تسلية ملّت منها خلاص، واللي إحنا قبلناه غيرنا هيقبله بسهولة، كنت عايزني أستنىٰ لما لعبتها الجديدة تاخد كل حاجة؟!

نظرت في مرآة السيارة لرأسها المترنحة مع اهتزاز إطاراتها، وغرقت في ذكريات أقنع نفسي بأنها كافية، اختلطت مشاعري وأنا أتذكر كيف قابلناها، كيف توحدنا علىٰ حبها، وكيف فرقتنا رغباتها، زفرتُ في قوة انتزعته من دوامة أخرىٰ تجاذبته فيها ذكرياته الخاصة معها، امتداحها له وإشادتها المزيفة به جعلاه صيدًا سهلاً لها، نظر لشفتيها في المرآة الجانبية، خيل إليه أن ابتسامتها الجذابة ستطالعه، تلك الشفاه التي أغرقته بعبارات التودد حتىٰ أحالته لدمية بين يديها، انصاع لها ولي في إتمام أبشع الصفقات، لم يكن المال همه قط، لكنه وجد نفسه علىٰ حين غرة متورطًا معنا في الاتفاقات المشبوهة، حاولنا استمالته بالمال فلم نفلح، أدركت هي بذكاء الأنثىٰ كيف تستجلب طاعته لها، تنهد في استسلام وسألني:

- حطيت لها كام نقطة.

أجبته بإشارة من كلتا يديّ الممسكتين بالمقود، فاتسعت عيناه وهو يصرخ:

- عشرة.

التفت لها ناظرًا لجسدها المرتخي، قبل أن يشفق عليها أفاقه صوتي:

- دماغ زي دي ما كانش هيأثر فيها أقل من كده.

مط شفتيه بحركة لا مبالية...

- لما كل حاجة هتبقىٰ في إدينا هتعرف إني كنت علىٰ حق.

نظر لعلامة علىٰ الطريق وأردف:

- قربنا خلاص؟

انحرفت بالسيارة مغادرًا الطريق الاسفلتي، ومتوغلًا بها بين الرمال، ساد الصمت مرة أخرىٰ حتىٰ وصلت لمبتغاي، أوقفت السيارة بادرته:

- لازم نخلص قبل الشمس ما تغرب.

ترجلت من السيارة وفتحت الحقيبة الخلفية لأخرج منها أدوات الحفر، نظر إليّ في قلق واستجداء متلعثمًا:

- نشوف حل تاني.

أجبته بلهجة عنيفة:

- ما فيش حل تاني.



تراجع خطوات للخلف وهو يشير بكفيه:

- أنا مش هساعدك، أنا مش عارف إزاي وافقتك لحد دلوقت.

قاطعته بكلمة واحدة تفيض غضبًا :

- خلاص.

تناولت المجرفة وبدأت الحفر، لم أتوقف حتىٰ وصلت لعمق مناسب، فتحت السيارة وسحبت جسدها الذي لا يزال دافئًا، ألقيتها علىٰ وجهها في الحفرة، قاطعني قبل أن أهيل عليها الرمال:

- أنت مش بني أدم أنت وحش.

رددتُ بلهجة حادة:

- لو مش هتسكت هادفنك معاها.

أطرق برأسه وأجابني في انكسار:

- أنت قتلتني قبل ما تقتلها بزمن.

اقترب من الحفرة وقفز إليها بينما استمريت أنا في تغطيتهما بالرمال بارتياح وابتسامةٍ ساخرة، ووجهٍ لا يزال محتفظًا بملامحه الثلجية.





أرض بور

جلس علىٰ مقعدٍ متهالكٍ في أحد الحدائق العامة مستظلاً بأحد الأشجار، يتابع في تأففٍ العشب النافق علىٰ الأرض الجافة:

- حتىٰ أنت مستحملتش.

يسند ظهره ويضع مرفقيه علىٰ ظهر المقعد واضعًا رجلًا فوق الأخرىٰ، أمال رأسه للخلف متطلعًا للشجرة، زفر في ملل، لا يسمع سوي خرير الماء المنساب من خرطوم الماء مع خلو الحديقة في هذا الوقت من النهار، يغمض عينيه محاولًا الاسترخاء فتهاجمه الأفكار التىٰ لجأ للحديقة هربًا منها، يفتح عينيه ويهز رأسه نافضًا إياها في قوة، هز قدمه في عصبية ثم انتفض جالسًا، دس يده في جيبه يبحث عن علبة السجائر، زم شفتيه وهو يخرجها من جيبه مجعدةً، أخرج منها السيجارة الأخيرة فوجدها مقوسة يتناثر التبغ علىٰ رأسها هز رأسه في استهزاءٍ:

- هي جت عليكي أنتِ.

لفها بين أصابعه برفقٍ حتىٰ عدلها، قلب ما في جيبه بحثًا عن عود ثقاب فلم يجد، تأفف في حنقٍ وهو ينظر حوله باحثًا عمن يشعلها له، لم يجد حوله سوىٰ عامل النظافة يمشط الأرض بالقرب منه، رفع صوته ولوح له:

- معاك ولاعة يا ريس؟

ابتسم الرجل وترك مقشته وأسرع صوبه، أخرج من جيبه علبة الثقاب وأشعل له السيجارة وهو يبتسم ويتمتم بعبارات الدعاء له، منتظرًا أن يمن عليه ببعض المال، مضي خائب الأمل يتمتم بعبارات ساخطة، نظر له صاحب السيجارة في استهزاءٍ: بقينا نتحوّج للي يسوىٰ واللي ما يسواش. أخذ نفسًا طويلًا نفثه في الهواء في هدوءٍ، عاد للنظر لعامل النظافة بسخطٍ:

- علىٰ الأقل بتشتغل يا ابن المحظوظة.

انتهت السيجارة بسرعةٍ فائقةٍ، عاد الملل ينهشه، وضع رأسه بين كفيه ونظر للأرض، لفت نظرَه مجموعةٌ من النمل تتزاحم في حمل كسرة صغيرة وتسير بها، ظل يتابعها وهي تتدافع بما تحمل متجهة لجحرٍ صغيرٍ بجوار قائم مقعدِه، توافدَتْ أعداد أخرىٰ لمعاونة المجموعة في إيصال الحمل الثقيل، دقائق استغرقتها حتىٰ كادت تصل للجحر، رفع قدمه ودهس النمل بحمولته وهو يبتسم.



غرفة بلا نوافذ

(وسط البلد) مكانُنا المفضلُ الذي لا نملُ من التجوالِ فيه، أطرح من همي على أرصفتِه.. وألملم شتاتي من واجهاتِ المحلاتِ متكئا على كتفِه.

تعجبتُ كثيرا من صحبتِه لي رغم صمتي الدائم! اكتفيتُ دوما بالإنصاتِ له وهو يمازحُ هذا ويطري على تلك، وأحيانا وهو يسترسلُ في حديثٍ فلسفيٍ عميقِ الألفاظ، خاوي الدلالة.

لم يشتك قط من صمتي الطويل، ربما وجد ضالتَه في مستمعٍ يفضي له بأفكارِه المجنونةِ المنمقة، وقفنا أمام واجهةٍ تعرضُ الملابسَ النسائيةَ المثيرة، غضضتُ بصري وأشحت بوجهي جانبا، ثم عدت للنظرِ له لأجده يرمقني بنظرةٍ لم أستطع تفسيرها، كذبتُ نفسي لكنني رأيتها منه كثيرا مؤخرا.

عدنا لحجرتِنا الضيقةِ التي نتشاركُها سويا منذ زمن، لم ألحظ سابقا خلوها من النوافذ! استلقيت على السريرِ الوحيدِ فيها موليا له ظهري، بينما أشعرُ بنظراتِه تخترقُ جلدي وتتسللُ لنخاعي، تكومتُ داخل قوقعتي محاولا الاحتماءَ من أفكارٍ لم أعرف أهي لي، أم له!

استفقتُ على همسهِ الذي غاب عنه مرحُه المعتادُ مختلطا بصوتٍ أخر، لم يحاول صاحبُه اخفاء نبرتِه العدائيةِ الصاخبة، لم

أحرك ساكنا واكتفيت بالاستماعِ لهما، خيل إليَّ أن ذلك الغريبَ يتعمدُ أن يسمعني ما يقول، قالها بغلٍ لم أغفله:

- جبان، لا أعرفُ كيف تتحملً هذه الحياةَ الرتيبةَ(معه).

لم أتمالك نفسي، رغبتي في رؤيةِ ردِ فعلِه أجلستني رغما عني، هالتني نظراتُه الواجمة، أيفكر في كلامِ هذا الغريب؟ حولت بصري له لأجده يجلس مقابلا له في مكاني على الطاولةِ التي لا تتسع إلا لكرسيين، نظر لي بعينين تحملان المكر، عاد للحديث مع رفيقي:

- ألا ترى؟ إنه متعبٌ حقا، إذ كيف له أن يحيا بين جدرانِ الصمت!

رفع رفيقي عينيه لي في إشفاق، أردت أن أصرخ فيه:

- لا تصغ لهذا المحتال، هو لا يعرف ما يجمعنا.

لكن شفتي المطبقتين خذلتاني كالعادة، بل امتد الخذلانُ لسائرِ جسدي فتجمد، اتسعت حدقتاي وأنا أرى الغريبَ يخرج من جيبه سكينا ويضعه أمامه قائلا بهدوء:

- ساعده في التخلصِ من ضعفه، دعنا نمضي معا في طريقي.

قلب بصرَه في الحجرةِ وصاح بثقة:

- هذه الغرفةُ تحتاج لنافذة.

ثقتُه وارتباكُ صديقي وهلعي.. والسكين، وصمتٌ ملأ فراغَ حجرتِنا الصغيرة، رأيت الآت بوضوح، سيتخلصان مني، فأنا الحلقةُ الأضعفُ هنا، صراخي وانفعالي لم يظهرا إلا في ارتعاشةٍ خفيفةٍ



اجتاحتني، عينا رفيقي مثبتةٌ علىٰ السكينِ ويدُه ترتجفُ وهي تمتد نحوه، ابتسامةُ الغريبِ وهو مغمضا عينيه رافعا ذراعيه للسماءِ كمن يوشك علىٰ التحرر..

أمسك رفيقي السكينَ ونهض في تثاقلٍ واضح متوجها إلي، رفع السكين عاليا ثم أفلته، هوىٰ السكين نحويً فالتقطه وغمدته بصدري، ليسيلَ دمُ ثلاثتنا.



خلف المرايا

منذ سمعت صوتَها لأول مرةٍ ونبضاتي تتراقصُ كلما داعبت موسيقاه أذني، همتُ بحبِها قبل أن أراها، وما إن وقعت عيناي عليها حتىٰ عشقتُ تفاصيلَها، أصبحت ابتسامتُها غايتي التي أسعىٰ أن أنالَها دوما، راقبتني وراقبتُها دون كلل، لم تنلْ مني الغيرةُ ممن شاركونني حبها، وكيف لا يعشقُها كل من منحَته حبَها واهتمامَها، لكنهم دائماً ما أحسوا بالغيرة مني؛ فأنا ابنتُها الصغرىٰ المدللة، لم يفهموا علاقتي الخاصة بها أبدا، كيف كانت كلُ منا علاجٌ شاف للأسقامِ الأخرىٰ.

لم أعرف كيف تحولتُ وأنا ابنةُ الثانيةِ عشر لأمها، مذ ذبُلت عيناها اللتان ارتويتا دمعاً سخيناُ لفراق أبي، غابت ابتسامتُها فتشقق قلبي ألماُ وصرتُ أجبر وجعي ووجعَها بعناقاتٍ طويلةٍ حتىٰ نغفوا، لم تغيرْني السنون وأنا أكبر أمٍ لأمي، لم أهتم قط بنظرات الغيرة في أعين إخوتي، كانت نيرانُها تخبو في أفئدتِهم عندما يروا ابتسامتَها.

أجلسُ يومياً معها نترحمُ علىٰ والدي؛ لم تملْ قط ترديدَ حكايات الحب التي جمعتهما معا، ولم أمل الدعاءَ له وقد ترك لنا ما وفر لنا رغدَ العيش، فكبرنا في جنةٍ لا يعيبها سوىٰ غيابِه عنها.

كانت الدقائقُ تمر عليَّ ثقال بعيدٍ عنها، فأهرعُ للبيتِ فور انتهاءِ محاضراتي لأطمئن عليها، أدخل كالسهم للشرفةِ حيثُ تجلسُ؛ حتىٰ أرىٰ وجهَها، فيلتهمُ الحزنُ قلبي وأنا أرىٰ ابتسامتَها الشاحبة، أين ذهب لمعانُ عينِك يا أمي؟ أين تاهت ضحكتُك ورنتُها العذبة؟ آه لو أستطيع استرجاعَها...

اليوم تركتُ الأصدقاءَ وهرعتُ للبيت ليتسلَل لأذني ما أطربها أكثر من موسيقايَّ المفضلة، إنها ضحكة أمي التي غابت منذ زمن، تزلزلُ أركانَ بيتِنا الواسع، فتتراقصُ الثريا وتينعُ أزهارُ حديقته، تداعت الأفكارُ المجنونةُ تسابقُ خطواتي وأنا أقطعُ الردهةَ الكبيرةَ لأجدَه معها، فمنذ غيابِ أبي لم أسمعْ ضحكتَها العذبةَ ترتعُ في أرجاءِ المكان، صفعتني رؤيتُها.. سيدة خمسينية في عباءةٍ سوداءٍ تبدو كأنها غمست كلتا يديها في متاجرِ الذهب فثقلتا بالحلي، تضحك وأمي بصوتٍ عال، وقفت ذاهلةً أتأملُها، لم أعرفْ لما خُيِل إليَّ أني أعرفُها، علهما عيناها اللتان تطابقان عيني أمي في لونٍ يشابه سماءَ الصيف الصافية.

بادرتني أمي:

- تعال أسيل، سلمي علىٰ خالتكِ خديجة.

لم أتحركْ من ثباتي، من هي خالتي خديجة؟ ولماذا تطلقُ عليها أمي لقب خالتك؟ لم أعتد أن أنادي حتىٰ خالاتي بهذا اللقب!

بادرتني هي بلكنةٍ ريفيةٍ خالصةٍ شوهت اسمي بين شفتيها:

- تعالِ أسيل، لها حقٌّ أمكِ أن تخَافَ عليكم من العيونِ الحاسدةِ وتبعدكم عنا.

تقدمت بخطواتٍ وجلةٍ لأسلمَ عليها بعد أن رأيتُ الطلبَ في عينِ أمي، ما إن التقفت يدي حتىٰ جذبتني بقوة لحضنها وانهالت القبلُ ذات الصوتِ العالي علىٰ وجنتي وضحكاتُ أمي تتعالىٰ، انتزعتُ جسدي من بين ذراعيها ولا أعرفُ ما اعتراني أهو غضبٌ أم دهشةٌ!

استأذنتُ وضحكاتُ أمي تلاحقُني مع عشرات الأسئلةِ عن هذه الضيفة التي لا تشبهُنا في شيء! كيف لها أن تعثر علىٰ ما أرهقني البحثُ عنه؟

علىٰ مائدةِ الطعام تراصت أطباقٌ غير اعتيادية، جلستُ وإخوتي وعيونُنا تلتهمُ (الخالَة) التي شمرت عن ساعديها، بدأت توزيعَ الحمام المحشي والأرزَ المعمرَ علينا وهي تقسمُ لنا بأنها لم تترك خدمَها يمسونه وأنها صنعته بنفسها، فتتبادل الضحكات مع أمي التي لم أرها تأكل بيدها بهذا النهمِ من قبل!

تبادلتُ وإخوتي النظراتِ الحائرة، وضحكنا من حكايات الخالةِ وطريقةِ نطقِها، وشبعنا من ضحكات أمي.

لم أتمالك نفسي وذلك الفضول ينهشُني، ما إن دخلت الخالة أحدَ الغرف لترتاح حتىٰ سألت أمي عنها، استرسلت أمي وهي تحكي عن خديجة.. ابنةِ خالِها الجميلة التي كبُرت معها وارتادت معها نفسَ المدرسةِ ببلدتِهما الأم، وابتسمت أمي وهي تصفُها بتوأمِها التي لم تنفصلْ عنها إلا بزواجِها وسفرِها مع والدي للعاصمة، ابتسمت مذهولةً وأمي تغمزُ لي بعينها وتخبرُني أن كلتاهما عشقت معلمَ اللغةِ العربيةِ ذاته، تلك الهالةُ التي أحاطت أمي أثلجت صدري، مع تحفظي التام علىٰ تلك الزائرةِ التي إن سكت لسانُها تكلمت أساورها!

لم تمر ساعةٌ حتىٰ كانت الخالةُ خديجةُ في كامل نشاطِها وضوضائِها التي غزت هدوءَ بيتِنا، تجلسُ أمام أمي فَي الشرفة وأمامهما أدواتُ إعدادِ القهوةِ التي لم أرها يوماً خارج سجنِها

الزجاجي في ركنِ أنتيكات أبي رحمهُ الله، انتابني الغضب، من أعطىٰ تلك المرأةَ الغريبةَ الحقَ في أن تستبيحَ مقتنيات أبي وقدرته علىٰ استجلاب ضحكةِ أمي؟

لا أحتاجُ لذكرِ سببٍ واحدٍ لعدم تقبلي لها، هي وأفعالُها تكفلا بشرحِ كل شيء، أوليتهما ظهري وابتعدتُ قليلا قبل أن أتجمدُ مكاني وصوتُ زغرودتِها يصدحُ في المكان، من سمح لها بهذا؟ ماذا سيقول عنا جيرانُنا في حينا الراقي، عدتُ إليهما تعلو وجهي النظراتُ الغاضبة، نظرت لأمي مباشرةً واللومُ ينضحُ من قسماتِ وجهي، لأفاجئ بتبريكات الخالةِ ودعواتها لي بزوجٍ صالح كزوجِ أختي هاجر التي سيتمُ زفافُه عليها قريبا، ماذا تقولُ هذه السيدةُ؟ متىٰ تحدد قربَ موعدِ زفافِ أختي؟ أيعقل أن تخبرَها أمي بذلك قبل أن تخبرَني؟ قبل أن أفيقَ من دوامةِ تساؤلاتي هبط علي جلمودِ جديدٍ من بين شفتيها:

- سأحضرُ بالتأكيد مع زوجي وأبنائي، ومن يدري عل أسيل ترضىٰ بالدكتور محمد أصغر أولادي زوجا.

إلىٰ هنا وكفىٰ، كيف لأمي أن تسمح لهذه المرأةِ بحضور زفافِ أختي؟ كيف سنقدمها لأهلِ زوجِها ولأصدقائنا؟ وبماذا أنهت حديثَها؟ هل جمعت اسمي واسَمَ ابنِها في جملةٍ واحدةٍ تحملُ معنىٰ الزواج! لا يمكن السكوتُ علىٰ ذلك أبدا، وددت لو وضعت لها منومًا حتىٰ أستطيعُ الانفرادَ بأمي، لا أعلم كيف ولكن مذ اختطفَتها مني صباحا وأنا أتشوقُ إليها!

استجابت دعواتي أسرع مما كنتُ أتوقعُ، فإذا بالخالة تصلي العشاءَ وتستأذنُ في الذهابِ للنوم، فباكر تأتي سيارةٌ خاصة لتقلها لبلدتها وتزيحُ عنَّا هذا الهم، لن تسمح لها أمي بالتأكيد أن تخربَ صورةً حافظتُ عليها لسنواتٍ بين الأصدقاء.

انتظرتُ حتىٰ عاد البيتُ لهدوئه أخيرا ودخلت حجرةَ أمي ألقيتُ بنفسي بين ذراعيها في لهفةٍ وكأنها غابت عني لسنوات، لم يغب عنها حيرتي واضطرابي ولكنها اكتفت بإسكاني قلبها حتىٰ هدأ قلبي المضطرب، لم أرفع رأسي وسألتها:

- هل حقا دعوتِ الخالةَ خديجة لحفلِ زفافِ هاجر؟

تحسست أمي خصلات شعري بحنانٍ وردت علي:

- إن هاجر من دعتها بنفسها يا أسيل.

رفعتُ رأسيَ مذهولة، إذ كيف لهاجرَ أن تخربَ حفلَها بنفسِها، سألتها معترضة:

- كيف ذلك يا أمي؟ لا أصدقُ أن هاجرَ تفعلُ ذلك بنفسِها وبنا، أعلم أنها قريبتُك ولكن ذلك لا يمنحُها الحقَ في حضورِ مناسباتِنا الخاصة وتخريبِها بملابسها الغريبة وصوتها العال.

احتضنت أمي وجهي بكفيها وابتسمت ابتسامةً خفيفةً قبل أن تسألني:

- أتعرفين لماذا تأخر زفافُ هاجر يا أسيل؟

صدمني السؤال، إذ لم أفكر فيه قبلا، فاكتفيتُ بهز رأسي نافية، اعتدلت أمي وكست ملامحَها الجديةُ التامة، ثم نهضت وتوجهت لخزانتِها وأخرجت صندوقين، أحداهما أعرفه جيدا، هو صندوق تحتفظُ فيه والدتي بأوراقِنا الهامةِ منذ وفاة والدي، أما الآخر فيبدو كصندوقِ الهدايا، جلست أمي أمامي وبدأت في البحثِ بين الأوراقِ حتىٰ أخرجت وريقات لمحت عليها اسمَ هاجر، قدمتها لي واسترسلت:

- منذ وفاة والدِكم يا أسيل تغيرت الحياةُ أمامنا جميعا، خسرت زوجًا وأبًا وصديقا، أنا كما تعرفين لا أخَ لي وبوفاة جدك أصبحتُ بلا سند، وخسرتم أبًا رائعُ لو وزع ما كان يحمله لكم من الحب لغطىٰ الأرض ومن عليها وفاض، لكنه لم يتركنا للأيام تنهشنا بأنياب الفقر، فترك لكل منكم وديعة يحصل عليها يوم يبلغ الثامنة عشر، لكنه لم يكن يعلم يا حبيبتي أن الأيام أشد قسوة، وأن ما ترك لكم لن يكفي، لقد تعودتم رغد العيش، لن أنسىٰ فرحة هاجر وهي تخبرني بأن زميلها ابن رجل الأعمال الشهير يحبها ويريد التقدم لخطبتها.

وضعتُ الأوراقَ والحيرةُ تتلاعبُ بي وما علاقة ذلك بهذه الخالة، قبل أن ينطق لساني أجابت أمي التساؤلَ دون أن أسأله:

- سأخبرك بما لا يعرفه من اخوتِك سوىٰ هاجر، لقد تم تأجيلُ الزفافَ لعدم قدرتِنا علىٰ الوفاء بمستلزمات الزفاف يا أسيل.



انهمرت الدمعاتُ علىٰ وجنتيها تعتصرُ قلبي اعتصارا وتهدج صوتها:

- لم أشعر بعجزي إلا حينها، لم أشعر بفقد والدك إلا وأنا أقف وحدي بلا حيلةٍ لأتممَ سعادةَ ابنتي الكبرىٰ.

قفزتُ من مكاني أحتضنُ رأسَها واقبله، ودمعاتي تخالطُ دمعاتها:

- ما قصرتِ أبدا يا أمي.

لحظة أن احتضنتُها نسيت الخالة خديجة ونسيت كل العالم من حولي، لم أعد أشعرُ غير بابنتي التي ولدتني، وكعهدي بها دوما كانت أمي قوية، تمالكت نفسَها كفكفت دمعاتها ونظرت لي قائلة:

- منذ أسبوعٍ تكالبت الأفكارُ علي وخنقني الهمُ، لم أرد أن أُشعرَ أحداً منكم بما حل بي فأغلقتُ علي بابي، ولجأت لألبوم صورنا أشكو لأبيك قلة حيلتي، وجدت خديجة تطل من بين الصور لي ابتسامتها الواسعة، دقائق وأنا أجتر ذكرياتي معها علىٰ مهل في بيت جدك الكبير، نلهو طفلتين جدلت السعادة بخصلات ضفائرنا، وطريق المدرسة الذي طالما عج بالمعجبين بجميلتين القرية وبنات ساداتها، تعجبت كيف فرقت الأيام قلبين تشاركا ودا خالصا، فاتصلت بها، عرفت صوتي فور سماعه بعد سنوات من القطيعة، تشاركنا بعض من ذكرياتنا وتبادلنا الأخبار، لم يخف عليها الضيق الذي تشبع به صوتي لكنها لم تسألني عن السبب مباشرة، بحنكتها التي عرفت بها سألتني عنكم، أخبرتها عن هاجر وزفافها الذي

تأجل أكثر من مرة، لم تخف عليها المرارة التي تغلغلت بصوتي، فأدركت سبب همي دون أن أقوله، بعدها بيومين هاتفتني وأخبرتني برغبتها في زيارتي.

كنت استمع لأمي وأنا ألوم نفسي وأوأنبها، أذ كيف خفي كل ذلك عني؟ كيف شغلتني اهتماماتي عن الإحساس بحزن أحب الناس لقلبي؟ كيف أدركت الخالة خديجة أن بأمي مكروها من سماع صوتها بعد سنوات من القطيعة؟ لحظات والتساؤلات تسابق الدمع الذي انساب في هدوء، بينما عجز اللسان عن الكلام، أردفت أمي:

- اليوم وصلت خديجة في عربة زوجها الفارهة تحمل من أطايب الريف لنا ما استطاعت حمله، لكن هذا لم يكن كل شيء يا أسيل، لقد طلبت هاجر وألحت علىٰ رغبتها في رؤيتها، باركت لها ودعت لها وأخبرتها بأنها من أهل الريف وأن لهم عاداتهم التي نسيناها نحن أهل المدينة، وأهدتها ذلك الصندوق.

أمسكت أمي الصندوق الأخر وقدمته لي، تناولته وأنا أمسح دموعي، فتحته فاتسعت عيناي رغما عني وأنا أرىٰ محتواه، فرفعت بصري لأمي متسائلة، ابتسمت أمي وهي تشير للصندوق وتقول:

- إنها (نقطة) خالتك خديجة لهاجر يا أسيل، لقد علمت بفطنتها ضائقتي فلم تتأخر علي، ترددت هاجر في أخذها لكنها شرحت لها أنها عادة متعارف عليها، غمرت السعادة قلب هاجر فدعتها لحضور زفافها.

لم أذق النوم ليلتها، بت أفكر فيما قالته أمي، وفي تلك الغريبة القريبة، مع شروق الشمس سمعت صوتها تتمتم بالصلاة، خرجت لها ووقفت أنتظر أن تفرغ من صلاتها وأنا أفكر كيف أشكرها لإحساسها بأمي؟ وكيف أرجعت لها ضحكتها الغائبة منذ زمن، مع أخر تسليمات الصلاة لم أعرف كيف أعبر عن امتناني لها، لا أعرف كيف وجدت نفسي أحتضنها ودمعاتي تتحدث عني.



أوناتي أسي

خدر خفيف يتسلل ببرودة بين أوردته من أخمص قدميه لسائر جسده الممدد علىٰ السرير، ارتعدت أوصاله قبل أن يفتح عينيه في تثاقل ليراها، جاثمة فوق صدره بوجهها الملائكي الشاحب وشعرها الفضي السابحة أمواجه حول وجهها، احتبست أنفاسه واتسعت حدقتا عينيه وهو يتطلع لعينيها الخاويتين اللتين تحاولان سحب روحه لهوة سحيقة، حاول التقاط أنفاسه بصعوبة فرفعت سبابتها أمام فمها المزموم قائلة بهمس يشوبه شيء من فحيح:

- ششششش، قم واغلق الشباك.

فتح عينيه فجأة وهو يشهق بكل ما أوتي من قوة لانتزاع الهواء من فراغ الغرفة، هب جالسا فزعا وعرقٌ باردٌ يغطيه، لا زالت أطرافه خدرة، نظر للشباك المفتوح ونهض متحاملا إليه، سواد دامس يعم المكان في غياب القمر لم تفلح نجوم السماء في تخفيفه، جالت عيناه في المكان وتوقفت فجأة علىٰ ثلاثة أزواج من العيون المترصدة قبل أن تتنامىٰ لمسامعه همهمات غريبة، أغلق الشباك بقوة وجرىٰ علىٰ الباب ليتأكد من إحكامه، رجع لحافة السرير لاهثا، تحسس شعر ساعده الذي لا يزال منتصبا، لا زالت رؤيتها تترك عليه نفس الأثر، انكمش في سريره متدثرا بالغطاء وهو يتذكر وجهها الذي طبع شحوبه علىٰ وجهه فهربت منه الدماء، قطع عواء مخيف صمت الليل فغطىٰ وجهه وظل يستعيذ بالله حتىٰ نام...



طرقات الباب تصر أن توقظه ونداء بلهجة نوبية يعرف صاحبها يناديه:

- يا باشمهندس حسن... استفق، قارب النهار علىٰ الانتصاف.

أجابه في وهن ونهض بصعوبة ليصل للباب، ما إن فتحه حتىٰ شهق الطارق صاحب البشرة السمراء وهو يسأله:

- أمريض أنت يا باش مهندس؟

ابتسم في صعوبة:

- لا أبدا أنا بخير يا عم بشري، جافاني النوم فقط.

ابتسم العجوز وأردف:

- أكيد من أصوات الذئاب، ما هدأت البارحة حتىٰ اختطفت أحد الغنم.

شرد حسن وهو يتذكر العيون التي رآها تترصد شباكه، نفض خوفه وأشار للعجوز:

- سأرتدي ملابسي وأوافيك بالموقع، اسبقني يا عم بشري.

تركه الشيخ المتكئ علىٰ عصا وهو يتمتم بعبارات اختلطت بها العربية بالنوبية ميز فيها القليل من السباب الكثير من السخط...

مرت السويعات الباقية من اليوم في سرعة لم يلحظها، مع ميل الشمس للمغيب لاحظ تراخي العمال، صرخ عليهم بصوت عال:

- هلموا وانهوا عملكم، لماذا تتراخون؟

لم يجيبوه وإنما اكتفوا بالهمهمة وتبادل عبارات بالنوبية لم يفهمها، اقترب منه عم بشري مبتسما:

- هدئ من روعك يا باشمهندس، قاربت الشمس علىٰ الزوال، والرجال لا يعملون بعد حلول الظلام.

بادره حسن:

- تعرف أن لدينا موعد محدد لإنهاء الحفر و..

قاطعه عم بشري بلهجة أكثر حزما:

- الخوف أقسىٰ من لوائح العمل يا باشمهندس.

رنت كلماته في أذنه فاكتفىٰ بهز كتفيه واكتفىٰ بمراقبة عم بشري وهو يصدر أوامره للعمال، قبل أن يبتعد عنه ناداه:

- عم بشري ماذا تفعلون بعد انتهاء العمل؟

واستطرد معللا:

- الوقت ليلا ممل وحجرتي معزولة والوحدة..

قاطعه عم بشري وقد اتسعت ابتسامته:

- لا تحتاج تبرير يا ولدي، تعال وجالسنا، نحن نتسامر يوميا وسط مساكننا.

حول نار أوقدوها علاها إبريق نحاسي كبير وأكواب الشاي الصغيرة تدور بأيديهم جلس بينهم منصتا لأحاديثهم وقهقهاتهم، متظاهرا أحيانا بالابتسام ومبتسما من ردود أفعالهم تارة أخرىٰ، حتىٰ بدأ أحدهم حديثا لجم ألسنة الجميع وأغرقهم في صمت وترقب، مال حسن علىٰ عم بشري مستفسرا، همس له الشيخ:

- إنه يحكي عنها.

أكله الفضول فسأل:

- من هي يا عم بشري؟

أشار الشيخ للراوي فالتفت إليه وهو يحكي عنها مستعينا بحركات مسرحية ونبرة صوت استأثرت على اهتمام الجميع، بينما قام عم بشري بترجمة روايته:

- هي... ابنة كبير قبيلته، لم تكن أكبر أولاده ولكن ميلادها أفجع كل من سكن الوادي.

صمت الشيخ لبرهة وهو يتابع الرجال الذين تغامزوا بعبارات وضحكات ذات مغزىٰ فنهرهم واستطرد:

- جاهلون ما كانت أمها بغيا وما كان لها ذنب، هنا..

وأشار بعصاه للجبل الذي تعلوه حجرة حسن:

- هنا حبسوها مع أمها في كوخ خشبي، تركوا المسكينتين علىٰ جرعات الماء وفتات الطعام، سنوات من النبذ والاحتقار عاشتاها، كم قيل أنهم رأوا الطفلة تلهو مع ذئاب الجبل.

ابتلع ريقه وأشار للرجال الذين تعالت أصواتهم وهم يتجاذبون أطراف الحديث، سأله حسن بلهفة:

- وماذا بعد يا عم بشري؟

مط شفتيه وأجاب:

- ماتت الأم وتركت البنت التي اكتملت أنوثتها، بعد فترة انقطعت اخبارها ولم يرها أحد.

عم الصمت فجأة وزاغت الأعين، عاد حسن للسؤال:

- لماذا كل هذا؟ لا أفهم شيئا!

التفت له الشيخ مفسرا:

- عندما تولد طفلة في قبيلة نوبية وكأنها خلقت من لبن صاف، بشرتها شديدة البياض وعيناها زرقاوان وشعرها...

قاطعه حسن ذاهلا:

- كأمواج بحر من فضة.

ابتسم الشيخ:

- نعم، أنت تعرف القصة إذا، لماذا تتعبني معك يا باشمهندس؟

احتبست الكلمات في حلقه ودوار يتلاعب بعقله، ومضات تخطف بصره وترجعه لأول مرة رأها فيها...

لم يكن الوقت ليلا ولم يكن بمفرده، أجبره التعب على البحث عن حجر يستريح عليه، قبل أن يجلس خطف عينيه بريق خلف حفار عملاق، اعتدل وتحرك نحوه ليرى خصلات فضية وطرف ثوب رقيق يتلاعب به الهواء قبل أن يختفي، هرع لمكانه فوجده خاليا، سمع صوت أحد الرجال يصرخ وهو يهوي بحجر فوق ذات الموضع الذي كاد يجلس فيه منذ ثوان ليقتل عقربا...

توالـت زياراتهـا لـه بعـدها، تـارة لتنبهـه لخطـر وتـارة وهـو يعـاني الوحدة، لكنه وفي كل مرة كان يصاب بفزع وخوف شديدين، أفاقته يد عم بشري من شروده وهو يشير له:

- هيا يا باشمهندس، تأخر الوقت سأصحبك لمسكنك.

تبع الشيخ بخطوات مرتعدة، قبل أن يصلا بأمتار سأله:

- ما كان اسمها؟

بادله الشيخ السؤال بسؤال في خبث:

- من؟

تلعثم قليلا وأجاب؟

- الفتاة يا عم بشري...

توقف الشيخ ونظر مباشرة لعينيه وهمس:

- أوناتي أسي.

رددها حسن خلف:

- أوناتي أسي، ماذا تعني؟

رد الشيخ:

- ابنة القمر، هكذا سماها أهـل القبيلـة بعـد أن امتنـع ابوهـا عـن تسميتها.

ما أن أغلق بـاب حجرتـه حتىٰ التصـق بـه مرتعـدا، تطلـع لأركـان حجرته في توتر، بخطوات مرتعشة وصل سريره وألقىٰ بجسـده عليـه، شخص بصره للسقف وهو يسترجع كلام الشيخ، تمالك نفسه وجلس مفكرا بتلك المسكينة التي ظلمـت وغـدرها الجهـل والخـوف، عـاده

التوتر وقد أدرك أن ما يراه ليس هلاوس الوحدة أو أضغاث أحلام، ظلت الأسئلة تتلاعب به، لماذا أنا؟ ماذا تريد مني؟ هي لم تؤذني يوما...

هاجمته القشعريرة المقترنة بصقيع يوخز عموده الفقري وأطرافه يغزوها الخدر، تسارعت نبضاته واستعصت عليه الأنفاس، دار ببصره باحثا عنها لم يجدها، ابتلع ريقه بصعوبة قبل أن يتسلل همسها لأذنه اليمنىٰ:

- أنا هنا...

التفت مذعورا فلم يجد أحدا، رددت الجدران صدىٰ ضحكتها التي اخترقت خلاياه مطاردة الدماء الهاربة من أوردته، لملم الأحرف التائهة بين حلقه الجاف ولسانه شبه المشلول:

- ما...ماذا تريدين مني؟

ظهر وجهها فجأة أمامه من عدم، همست وهي تكاد تلامسه:

- بل ما ذا تريد أنت؟ أنت من ناداني.

انتفض واقفا وقد امتقع وجهه وزاد تلعثمه وهو يحاول التقاط أنفاسه اللاهثة:

- أنا أعرف من أنت، أعرف كيف تركوك وأمك هنا، ظلموها وقالوا في حقها..

قاطعته وقد تحول همسها لصراخ وسال السواد من محجري عينيها:

- كاااااذبوووون.



تملكه الرعب من هيئها، أمسك موضع قلبه الذي كاد أن ينفجر وأردف:

- أعرف أنها ظلمت وأن لا ذنب لك، هي حالة طبية نادرة لم تستوعبها عقولهم الحجرية، أنا لا أصدق ما قيل عنك.

هدأت ثورتها وهبطت ببطء لتستقر أمامه، تراخت أمواج شعرها الفضي الهائجة ليرتخي علىٰ كتفيها، تطلع لوجهها الذي امتزجت فيه الملامح النوبية ببشرة بيضاء صافية وعيون زرقاء في تناغم بديع، استقرت حواسه ولمعت عيناه بإعجاب:

- أنت جميلة يا أوناتي أسي.

رنت ضحكتها وهي تطفو محلقة بسماء الغرفة ساطعة كبدر مكتمل قبل أن تنسحب أطرافها كدخان يمتص بثقب غير مرئي بسقف الحجرة لتختفي تماما، ناداها ذاهلا:

- أوناتي أسي.

انبثقت آلاف الحمامات البيضاء من نفس الموضع وهن يشعن بضوء أبيض كالآف الأقمار، رفع يده يغطي عينيه اتقاء الضوء الثقيل الذي كاد يعميه، تراجع الضوء فجأة لذات المكان الذي خرج منه، ليترك ظلاما دامسا... يعم الحجرة الخاوية من كليهما.





ظلال غاضبة

أمسكتُ قلمي وهممتُ ببدءِ مشروعٍ جديد، قبل أن أداعبَ نقاءَ الورقةِ بهلوساتي، تسلل لأذني ذلك الصوتُ، حاولتُ تجاهلَه في البدايةِ لكنه أصرَ علىٰ مزاحمةِ أفكاري فتركتُ القلم، حاولتُ تجاهلَ تلك الهمهمات المنبعثةِ من حجرتي الضيقةِ لكنها لم تتركْ لي سبيلا غير التحققِ منها، داخل فراغِها اللا متناهي تزاحمن في أحدِ الأركانِ تحت شجرةٍ وارفة! كدت أفركُ عدساتِ نظارتي الطبيةِ غير مصدقةٍ لما أرىٰ؛ إذ كيف لهذا الجمعِ العجيبِ أن يتوأمَ بهذه الحميمية؟!

لم يكن هذا مصدرُ دهشتي الوحيد، بل أن تجاهلهن المتعمدَ لوجودي كان أكثرَ غرابةً وإيلاما في الوقتِ نفسه! تسلل شيءٌ من الغضبِ لنفسي أو ربما كانت الغيرة، كلٌ منهن اعتبرتني يوما صديقتَها المقربةَ وأفضت إلي بما لم يعلمْه غيري، والآن يولونني ظهورَهن بتلك الأزياءِ التي تبدوا كملابسِ مرتادي الحفلاتِ التنكرية.

يتبادلن العباراتِ الغاضبةَ همسا وينظرن لي، أرىٰ ذلك جليا في نظراتِهن الحانقةِ حينا، واللائمةِ حينا أخر..

لا... لن أقفَ مكتوفةَ اليدين وأتركهن يفترسن سيرتي، يا لهن من جاحدات!

اقتربتُ ولا يزال القلمُ يتأرجحُ بين سبابتي وإبهامي، رأيتها تتوسطهن باكيةً تمسحُ دموعَها في كمِ جلبابِها الريفي المرقع، بينما

تتسابقُ الأيدي لمواساتها والكلماتُ للترويح عنها، أزاح فضولي الذي يسري مني مجرىٰ الدم الغضبَ جانبا بينما تحفز القلمُ بين أناملي، نظرت إليها مليا، بالتأكيدِ أعرفُها لكني لا أتذكرها، اقتربت قليلا محاولةً التقاط ما يذكرني بها من أحاديثهن، خيل إلي أني تذكرتُها فرفعت القلم، التفتت لي صاحبةُ أكثرِ وجوههن غلا، بزيها الفرعوني الأنيق موجهة سبابتها لوجهي قائلةً كلمةً واحدة:

- إياكِ.

لسبب أجهله أصابتني كلمتُها بالشللِ فتوقفت، لم أملكْ إلا الاستماع وتحمل ما يقذفنني به، نظرت لي صَاحبةُ الكرسي المتحرك لائمة:

- واشية.

ردت عليها العروس الشابة وجسدها ينتفض:

- ليتها اكتفت بذلك، ما أفضينا إليها لنكون حروفا تائهةً علىٰ الأوراق، جئناها طلبا للمساعدة.

بحروفٍ متلعثمةٍ غاضبةٍ صرخت طفلةٌ صغيرةٌ تتوسطهن:

- لقد حرمتيني والدي.

لم تزد من تعاني آلام المخاض بأكثر من آهةٍ وهي تمسكُ بطنَها والعرقُ يغرقُ جبهتها، فتواسيها بيضاءُ الوجهِ صاحبةُ الشعرِ الفضي الحائمةُ حولهن في الهواء.

لم أتمالكْ من نفسي شيئا وأنا أرد مدافعةً عن نفسي:

- من تدعون بالواشية؟! ما كان بيننا اتفاقا أقررناه جميعنا، ولا أعتقد أني ادخرت جَهدا في تبليغُ رسائلكن؟

صراخي عليهن دس الخوف في القلوبِ فبدت الاعتراضاتُ كالهمس، شجعني ذلك علىٰ مواصلة حديثي الذي بدا أكثر هدوء:

- أنا لم أقصر في حق أي منكن، ما بيننا يظله تشارك المصالح، ماذا حدث لكن؟

خلت أني لكن أم! لماذا هذه القسوة؟

قلتها ودمعاتي تتسابق علىٰ وجنتي، كدت أشعر بدفء الحضن الذي سيوحدنا جميعا لكن ذلك لم يحدث، خرجت حليقةُ الرأسِ من بينهن واقتربت مني، وضعت كفيها علىٰ كتفيَّ وتطلعت إلي بنظرات خاوية:

- لم نجد من هي أشد قسوةً منك، لقد اخترت لنا جميعا حيوات حزينةً ونهاياتٍ بائسة، لقد اكتفينا..

تخطتني وسارت نحو اللا شيء وتبعنها الواحدةُ تلو الأخرىٰ وأنا أقف في ذهول، أفاقني صوتٌ مبحوحٌ يصرخ عليهن:

- انتظروني.

تبعتهم الشجرةُ تجرجرُ فروعها علىٰ الأرضِ تاركةً أوراقا متساقطة، لمعت عيناي فجأة ورفعت القلمَ أكتب علىٰ الجدار، التفتن إلي فجأة صارخات:

- لا.



المحتويات

والتقطتُّ أنفاسي ٧

موت آخر ٩

قبسٌ من يقين ١١

هذيان ١٤

ثمرة وحيدة ١٦

زليخة ١٨

خيبة أمل ٢١

عودة ٢٣

مصيدة ٢٥

علىٰ جانبِ الطريق ٢٧

عله يأتي ٢٨

وشاحها ٣٠

منظارٌ مكبرٌ.. وعدسةٌ مغطاة ٣١

أحلامٌ معقلةٌ بخيوطٍ من حرير ٣٤

دماءٌ علىٰ جدارِ الذاكرة ٣٦

دبيبٌ فوق الفراغ الأبيض ٣٨

ابن أبيه ٤٠

دخانٌ أسود ٤٢

أحمال ٤٥
بريقٌ فضيٌ خاطف ٤٧
الغية ٤٩
جلبابٌ خشن ٥١
قبرٌ من زجاج........................ ٥٣
هكذا رأيته ٥٥
حنين........................ ٥٧
اشتباه ٥٨
العاركه........................ ٦١
شغف........................ ٦٤
صرخة خرساء ٦٥
ماءٌ آسن........................ ٦٦
اللعبة ٧٠
أوراقُ الزيتون........................ ٧٢
سور ٧٥
بذورٌ شيطانية........................ ٧٧
مسافات........................ ٧٩
وسادة مطرزة بأحلام ذابلة........................ ٨١
مشاهد من ذاكرة سوداء ٨٣

بلا عودة ٨٧
أرض بور ٩١
غرفة بلا نوافذ.. ٩٣
خلف المرايا ٩٦
أوناتي أسي ١٠٥
ظلال غاضبة ١١٣